

www.ibtesama.com/vb
عبدالوهاب مطاوع
من المفكرة الزرقاء
** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
مجلة الابتسامة
الدار المصرية اللبنانية
www.ibtesama.com/vb

من المفكرة الزرقاء

الناشــر : الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٢٨٨٣ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 4 - 426 - 271 - 977
جمع وفصل ألوان وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : صفر ١٤٢١هـ ـ مايو ٢٠٠٠م
رسوم داخلية : عمرو فهمى

عبدالوهاب مطاوع

# من المفكرة الزرقاء

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

# مقدمة الكتاب

« من المفكرة الزرقاء » عنوان مقال أسبوعى ظللتُ أكتبه بانتظام فى مجلة « زهرة الخليج » التى تصدر فى أبى ظبى لحوالى عشر سنوات .

وحين استجبت لدعوة هذه المجلة لكتابة مقال أسبوعى فيها ، جلست أفكر فى العنوان الثابت الذى أتخذه له .. وكان مفهومًا لدىَّ أننى سأخصصه غالبًا للكتابة فى موضوعات المرأة والحب والزواج ، نظرًا لتخصص المجلة فى شئون المرأة ، فشغلت قبل الشروع فى الكتابة فى جمع بعض المواد الأدبية عن المرأة والحب .. وسجلتها مع خواطرى المتعلقة بها فى مفكرة لكى أستعين بها فى اختيار موضوعات المقالات .. وكتبت مقالى الأول الذى سأبعث به للمجلة..وتوقفت أمام العنوان الثابت الذى ينبغى له أن يندرج تحته كل أسبوع ، وطال تفكيرى فى اختياره .. إلى أن وقعت عينى على المفكرة التى استعنت ببعض موادها فى كتابة ذلك المقال الأول ..فلمعت الفكرة فى ذهنى وتساءلت: لم لا يكون عنوان المقال مرتبطًا بهذه المفكرة الزرقاء التى استعنت بها فى كتابته وسأسجل فيها من الآن كل ما يعنّ لى من خواطر عن الحب والمرأة والزواج ؟

وهكذا ولد مقالى الأسبوعى لمجلة زهرة الخليج ، وحرصت على

الاستمرار فى كتابتــه بالرغم من ضيق الوقت وكثرة الأعباء لأنه كان يتيح لى مجالاً أوسع للتعبير الأدبى عن نفسى ، بأكثــر مما أتحتــه أنا لقلمى فى مقالى الشـهرى بمجلة الشبــاب « نهر الحياة » ، حيث حددت خطة العام بأن يكون مرتبطا بقدر الإمكان بأفكار الشباب وقضاياهم ، أو فى بابى الأسبوعى « بريد الجمعة » الذى تحكم كتاباتى فيه نوعية المشاكل الإنسانية التى يعرضـها .

إلى أن عجـزت عن مـلاحقـة مـوعـــده الأسبـوعى بسبب كثـرة المسئوليـات وَوَهن الإرادة . وتكررت مـــرات اعتــذارى القهـرى عن كتابته . ثم سلّمت فى النهـاية بعجزى عن مواصلته إلى جـانب ما أقوم به من أعمال بالأهرام ومجلــة الشبــاب ، فـاعتــذرت آسفًـا عن عــدم مـواصلتــه ، واكتفيت بما كتبتــه فيــه خــلال هذه السنوات الجميلة ، واعترفت له بفضله الكبير على إنتاجـى الأدبى خلال تلك السنوات ، إذ اضطرنى راضيا أو راغما على الكتــابة الأدبية فى مـوعد محدد من كل أسبوع مهما كـانت الأعبــاء.. وأثمر هذا الالتــزام شبه القهـرى عددًا كبيرًا من المقالات أصدرتها تباعا فى عدة كتب فيما بعد ..

وها أنا أقدم لك هذه المجموعة الأخيرة منهــا ..فلا أجد لكتابى هذا عنوانًا أكثر مــلاءمة له من اسم هذا المقال الأسبوعى نفســه تحيةً له ، وقــد انتهى دوره للأسف فى حيــاتــى الأدبيــة . وعــرفــانًا بفضله فى إصدارى لعدد من الكتب لم أكن لأصدرها ، لولا أن التزمت بهذا المقال و«جاهدت » كثيرًا لكى أواصل كتابته طوال عشر سنوات .

**عبد الوهاب مطاوع**

# قطـار السعـادة

اتصلت بى تطلب موعدا لاستشارتى فى أمر هام يتعلق بحياتها ومستقبلها . دخلتْ إلى مكتبى مترددة وبدأت تروى لى أنها تواجه موقف اختيار دقيق عجزت فيه عن اتخاذ القرار السليم وترغب فى أن أعينها على اتخاذه .

إنها فتاة من أسرة عادية ، أنهت دراستها وتعمل منذ فترة بأحد المكاتب التجارية انتظارا لفرصة أفضل . وقد ارتبطت منذ عامها الجامعى الثالث بزميل لها من أسرة مماثلة لأسرتها فى الظروف الاجتماعية .. أحبها وأحبته .. ويعمل فى شركة خاصة.. ويتدفق حماسا ونشاطا ورغبة فى تحقيق أحلامه .. فراح يعمل أى عمل يتاح له بعد الظهر ، فعمل فى البداية فى محطة بنزين لفترة .. ثم مدرسا فى مدرسة ليلية بالحصة .. ثم أقدم على خطوة جريئة ، فاشترى بأول

مبلغ توفر له مكنستين كهربائيتين كبيرتين وأعلن لأسرته وأقاربه ومعارفه ولزملائه في الشركة أنه قد كون « شركة نظافة » صغيرة ، وأنه على استعداد للقيام بأعمال تنظيف البيوت والشركات بأسعار معتدلة لمن يريد !

وجمع عددا من أصدقائه وزملائه وجيرانه وراح يصحب فرقته للنظافة من شقة إلى شقة ويكسب دخلا محترما ويعطى معاونيه أجورهم بعدل وسخاء وهى تشجعه وتبارك خطواته . وتقدم فتاها لأسرتها طالبا يدها، وأعجبت الأسرة بشخصيته وكفاحه وإن لم تتحمس له كثيرا لأن مشواره طويل ولم يحصل على شقة بعد .

ولم ييأس الفتى الطموح ولم تهتز ثقته فى نفسه ..وإنما أخرج «أجندته» وراح يراجعها ويجرى حساباته ويحسب متوسط دخله ويضرب ويجمع ، ثم قال لوالد فتاته إنه سيحصل على الشقة وسيفى بكل التزاماته على أكمل وجه خلال ٣ سنوات من الآن ولايطلب منهم شيئا سوى الصبر والتشجيع . ولم يسد الأب أبواب الأمل فى وجهه وإنما طالبه بمزيد من الجهد لتحقيق أحلامه ، وبادخار كل ما يستطيع وتوجيهه لمشروع الشقة . ووعده الشاب بذلك ، وانطلق يصل الليل بالنهار فى عمل مستمر وفتاته وأسرتها سعداء به ..

ولكن المشوار ما زال طويلا .. والأب عاجز تماما عن المساهمة فى

زواج ابنته بأى مساهمة جدية ومسئولياته العائلية كثيرة وكبيرة ، فله بعد ابنته ثلاثة من الأبناء ما زالوا فى مراحل التعليم ولا مورد له سوى مرتبه .. والأم مريضة وعلاجها يستنزف بعض ميزانية الأسرة المرهقة .. ومرتب الفتاة يستهلك فى البيت ولم تدخر منه إلا أقل القليل ، والنفس فى لحظات ضعفها قد تضيق أحيانا بظروفها وتتساءل : إلى متى يستمر هذا الحرمان ؟

وفى إحدى لحظات الضعف التى انتابت الفتاة تراءى لها حلم يعدها بحل كل المشاكل بلا عناء ولا صبر طويل ولا كفاح .. إن صاحب المكتب الذى تعمل به فى الخامسة والخمسين من عمره وزوج وأب لثلاثة أبناء أصغرهم فى الثانوية العامة ، وهو معجب بها ويراودها على أن يتزوجها زواجا سريا ويقدم لها شقة جاهزة بكل ما تحلم به ومهرا سخيا وشبكة ماسية فاخرة ويستمر فى صرف مرتبها بعد الزواج بلا عمل لتساعد به أسرتها .. وقد رفضت الفكرة فى البداية واعتذرت لصاحب العمل بأدب وعرضت أن تستقيل قبل أن يفصلها، فتقبل رفضها بروح رياضية وطالبها بالاستمرار فى عملها وعاملها بعد ذلك باحترام ولم يضغط عليها لقبوله ، لكنه بدا حزينا ساهما منكسر النظرات . وبدأت تحس بأنها قد آلمته وجرحت مشاعره .. وتراجع نفسها .. وفى هذه الفترة وجدت نفسها تستخف بمشروع

خطيبها وبحماسه وتميل إلى انتقاد تصرفاته وملابسه وانشغاله الدائم بفرقة النظافة !.. ثم بدأت تلتفت إلى أشياء لم تكن تستوقفها من قبل ، فبدأت تتحدث عن مساحة الشقة التى ينبغى أن تعيش فيها .. وموقعها .. ونوع أثاثها .. وبدأت تضيق بركوب الميني باص وسيارة الأجرة مع أشخاص آخرين ، وتستمع باهتمام جديد عليها إلى حديث صاحب المكتب عن الفيلا التى يملكها على البحيرات المرة بفايد .. والشقة الجميلة بالمعمورة .. وأغمضت عينيها ذات مرة وهو يحدثها عنهما وقالت لنفسها : ما أجمل الحياة بلا كفاح ولا عناء !

وازداد ضعفها .. وازداد ضيقها بخطيبها فبدأت تفتعل معه الخلافات والمشاجرات .. وأحس هو بالخطر وعالج الموقف بحكمة فصارح أباها بأن ابنته تتعرض لإغراء لن تتحمله طويلا ، وطالبه بمنعها عن العمل بهذا المكتب وعرض تشغيلها فى شركة يقوم لها بأعمال النظافة . وفاتح الأب ابنته فثارت ثورة هائلة على خطيبها وامتنعت عن مقابلته ، وتقبل ثورتها بهدوء وهو يؤكد لها إنه إنما يحميها بذلك من ضعفها .. وسيصبر عليها إلى أن تعود إلى رشدها .

وبلغت قصتها مفترق الطرق ولحظة اختيار الطريق الذى تتجه إليه سريعا .. فلقد أحس صاحب العمل بترددها وضعفها فضاعف من إغرائه لها ، وأشفق عليها زميل قديم بالمكتب مما تعانيه فروى لها

قصة زميلة سابقة بنفس المكتب تزوجت صاحبه سرا واستمر زواجهما أربع سنوات ، إلى أن اكتشفته زوجته وأرغمته على طلاقها فطلقها، وانتهت قصتها بتغيير جوهرى فى روحها وبلقب مطلقة وبعض المجوهرات وتعويض مالى غير كبير ، أما الشقة فقد استردتها الزوجة الأولى واحتجزتها لابنها البكر .. وواجهته بما عرفت فبكى ووعدها بأن يشترى لها شقة باسمها وأن يؤمن مستقبلها واشتدت حيرتها، واستشعر خطيبها خطورة الموقف فوضعها أمام اختيار نهائى بين ترك هذا العمل أو فسخ الخطبة بعد أن صبر عليها طويلا .. وهى كما قالت تحب خطيبها .. لكنها تخاف من المستقبل ، ومن ناحية أخرى تحلم بالحياة اللذيذة مع صاحب المكتب وتتصور أنها بذلك سوف ترفع عبئها عن أسرتها وربما يسرت لهم حياتهم ، لكنها تخشى الخيبة والتعاسة وافتقاد الحب .. وتسألنى ماذا أفعل .. ومن أختار ؟

وسمعت قصتها باهتمام ثم قلت لها :

نبدأ من البداية .. أما تصورك إنك بذلك سوف ترفعين عبئك عن أسرتك وتيسرين لها بعض أمور حياتها بزواجك ممن يكبرك بثلاثين عاما ومتزوج وله أبناء فى مثل سنك .. فهو وهم يحاول كل من يقدم على عمل من هذا النوع أن « يجمل » به دوافعه غير العاطفية وغير

السوية للإقدام عليه، فكل فتاة تزوجت زواجا مصلحيا وضحت بالحب والإخلاص فى سبيله .. إنما فعلت ذلك غالبا لإرضاء طموحاتها المادية هى أولا وليس لحل مشاكل أسرتها كما تحاول أن تقنع نفسها لتبدو أمام نفسها كشهيدة لظروفها بدلا من أن تواجه الحقيقة وتعترف لنفسها بأنها قد تخلت عن حبها ورومانسيتها طلبا للحياة الأفضل أو نكوصا عن الصبر والكفاح. وظروف أسرتك فى النهاية عادية كظروف الملايين من أمثالها .. وأسرتك لم تطالبك ولن تطالبك بأى تضحية من هذا النوع ولن تسعد بشقائك ولا بزواجك المحكوم عليه بالتعاسة والفشل بعد حين ، و٩٠٪ أو أكثر ممن تزوجن بهذا الدافع الوهمى انتهى بهن الحال إلى الشقاء .. والفشل .. وربما الانحراف ، ولم تستفد أسرهن من تضحياتهن شيئا .. بل وربما فقدت هذه الأسر نفسها عطف بناتهن لأنهن كلما اشتدت بهن التعاسة فى زواجهن حملن أسرهن مسئولية شقائهن !

وتوقفت قليلا ثم سألتها : هل قرأت قصة « قلادة أنا » لأنطون تشيكوف ؟ فهزت رأسها نفيا ، فقلت لها إنها تكاد تماثل قصتك ، فلقد تزوجت شخصا بغيضا يكبرها بثلاثين عاما بنفس الحجة، فاهتزت بعد قليل كل قيمها الأخلاقية وبهرتها أضواء الحياة اللامعة فى المجتمع الذى انضمت إليه .. فانتهت سريعا إلى الابتذال والضياع ..

وأهم من ذلك أنها فقدت احترامها لأسرتها التى تصورت أنها تضحى بنفسها من أجلها .. وفقدت عطفها عليها واكتشفت أن أسرتها تعيش كما كانت تعيش قبل زواجها وأنها خسرت نفسها .. ولم تكسب الأسرة شيئا سوى احتقار ابنتها !

وصمتُّ قليلا ثم قلت لها : هذا من ناحية المبدأ .. ثم ننتقل بعد ذلك إلى التفاصيلِ ، إنك كما عرفت منك تحبين خطيبك .. وقد تعرض حبك له لوعكة أصابته بالضعف لكنها لم تقتله بعد ، ولن تقتله حتى ولو تزوجت صاحب المكتب هذا .. وسيظل نارا هادئة تحت الرماد تنتظر اللحظة المناسبة لتطل من جديد وخاصة حين تزهدين سريعا متع الحياة التى تحلمين بها .. والحب كجسم الإنسان إذا كان قويا صمد لغزوات الجراثيم التى تتسلل إليه واستنفر جهاز مناعته لإفراز مواد مضادة تقتل هذه الجراثيم وتطردها خارجه .. وإذا أصيب بوعكة كالأنفلونزا المادية التى أصابتك ضعفت مناعته وتمكنت منه الميكروبات فازداد اعتلالا .

وإذا أردت أن تعيشى حياة طبيعية بلحظات سعادتها .. ولحظات عنائها .. فعالجى ضعفك .. واستعيدى مناعتك .. واختارى من اختاره قلبك وعقلك وارتبطت به ويحبك بإخلاص منذ سنوات .. أما إذا أردت أن تعيشى حياة مضطربة قلقة تكسبين فيها بعض المزايا

المادية وتخسرين سعادة الروح واطمئنان القلب إلى الأبد فاختارى لقب الزوجة السرية لصاحب العمل !

ونكست الفتاة رأسها واستغرقت فى تفكير عميق ثم قالت لى بانكسار : أعالج ضعفى ؟

وأجبتها باسما : بجرعة مناسبة من المضادات الرومانسية .. تعادل ما تسرب إلى صدرك من جراثيم التفكير النفعى المصلحى الذى يغفل حسابات القلب ويتنكر للمشاعر ويقود صاحبه غالبا إلى المهالك

أتعرفين ما هى الرومانسية ؟ إن تعريفها العلمى هو أنها نزعة فى جميع فروع الفن تتميز بالعودة للطبيعة وإيثار الحس والعاطفة على العقل والمنطق ، وهى فى الفن تهتم بالجانب الروحى والعاطفى على حساب قيود الشكل .. والرومانسيون فى الأدب يؤمنون بما قاله جان جاك روسو من أن الإنسان خيِّـر بطبعه لكن المجتمع هو الذى يفسده .. ونحن على أية حال لا نريد لأحد أن يتجاهل العقل والمنطق فى حياته .. لكننا لا نريد لأحد أيضا أن يمضى فى الحياة مجردا من كل اعتبار للعاطفة والمشاعر والجانب الروحى منها ، ونؤمن بأن الإنسان قد يفَسد نفسه أيضا بالفكر الفاسد والمبررات المضللة .. والحسابات النفعية المجردة.. فيتحول إلى صخرة جرداء لا تعرف أبدا معنى السعادة الحقيقية . ومن المؤسف أننا فى هذا العصر قد أصبحنا فى

حاجة إلى جرعة ملائمة من الرومانسية تعيد الاعتبار للعاطفة والمشاعر ولا تسقطهما من حسابات أى إنسان خلال استغراقه فى بحر الهموم المادية. بل إن الإنسان يستطيع إذا أراد أن يوفق بين الأمرين ، وقصتك خير نموذج لذلك .. فخطيبك شاب جاد ومكافح وواعد بكل خير ، ومن الممكن جدا أن يحقق لك أحلامك المشروعة فى الحياة الكريمة إذا صبرت عليه وساندت كفاحه ولم تخذليه . إنك ستعيشين الحياة اللائقة التى تحلمين بها ولكن بعد كفاح قد يستمر ١٠ أو ١٥ سنة .. ثم تجىء الراحة بعد العناء .. وحين تجىء ستصبح هى جائزة الحياة لك على إخلاصك وصمودك فى وجه الإغراءات وتمسكك بقيمك وأخلاقك وحبك وأحلامك .. ومأساة البعض هى أنهم يريدون أن يبدأوا الرحلة من نهايتها وليس من بدايتها كما يقضى بذلك العقل والمنطق اللذان يتمسحان بهما ، فالحياة قطار يمر فى رحلته بمحطات متتالية من الصبر والكفاح والشقاء والتجربة والاختبار ، ثم يصل فى النهاية إلى محطة تحقيق الأحلام . فلا تتعجلى الخطوات .. فما دام قطارك يمضى على الطريق فسوف يصل إلى غايته فى الوقت المناسب .. أما القفز منه فلا عاقبة له إلا الانتحار .. والضياع .. وفقدان السعادة واحترام الذات .

ولاحظت فجأة أن دموعها قد سالت بغزارة فتوقفت عن الكلام لحظات ثم قلت مهونا عليها الأمر :

إننا نحتاج إلى قوة الحلم والخيال فى حياتنا لتعيننا على احتمال صعوبات الطريق وليس لكى تدفعنا إلى تنكب الطريق والسقوط فى الهاوية .. ومن حقك بكل تأكيد أن تحلمى لنفسك بكل طيبات الحياة .. ولكن بالطريق المشروع والطبيعى لك .. فاستعينى بهذا الحلم على عناء الرحلة ولا تقفزى من نافذة القطار معرضة نفسك للهلاك .. والضياع .

وأطرقت الفتاة طويلا وأجهشت بالبكاء ، فأحسست بأن دموعها هى دموع التطهر التى تغسل بها ما طرأ على روحها الطيبة من تغير عارض وضعف عابر . ثم هزت رأسها بعنف كأنما تطرد منها وساوسها وهواجسها ثم قالت بتصميم : سأركب القطار حتى النهاية ولو ظللت أترقب محطة الوصول حتى نهاية العمر .. ولن أبيع نفسى لأحد ولن أكون إلا لمن أحبه ويحبنى .

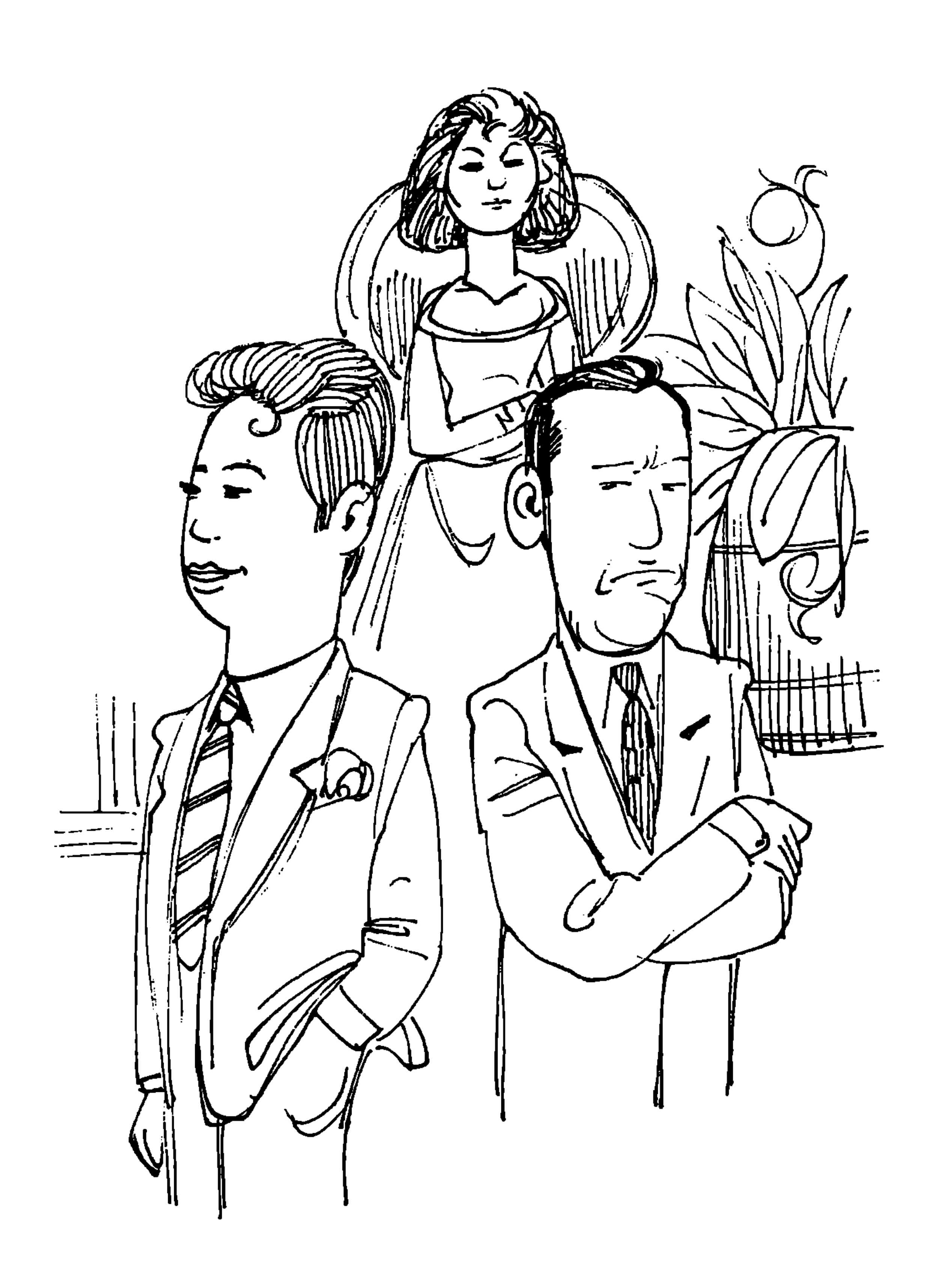
وشعرت بارتياح عميق .. فاقترحت عليها أن تسارع بإبلاغ خطيبها موافقتها على ترك العمل بالمكتب والانتقال إلى الشركة التى يعرضها عليها ، وأن تتعجل عقد قرانها فى أقرب وقت . فابتسمت من بين دموعها لأول مرة منذ زارتنى ثم قالت : ولم لا تبلغه أنت بذلك؟.. إنه ينتظرنى خارج مكتبك !

ودعوته وأبلغته بما انتهت إليه خطيبته ، وطلبت منهما دعوتى

لعقد قرانهما القريب ، فوعدانى شاكرين وانصرفا .. ونسيتهما فى زحام الحياة والمشاكل عدة شهور ، إلى أن تذكرتهما فجأة منذ أيام حين تلقيت بطاقة دعوة جميلة تدعونى لحضور قران صاحب شركة « .... » للنظافة على سليلة المجد والشرف ... « نائب » رئيس شركة « .... » للنظافة!

ولم تستلفت الدعوة انتباهى فى البداية .. ثم رأيت فى البطاقة الداخلية رسما بخط اليد لقلب كبير بداخله مكنسة كهربائية ! وكلمة تقول : لكى تتذكرنا !

فتذكرتهما .. وضحكت كثيرا .. وسعدت أكثر .. وفهمت من البطاقة أنها قد استقالت من عملها وتفرغت للعمل مع خطيبها فى شركته الصغيرة للنظافة .. واسترحت إلى أنهما يسيران فى الاتجاه الصحيح وأن قطارهما يمضى بقوة على طريق السعادة والنجاح .. إن شاء ».



# اجـر وراء سعادتك

هما شقيقان من أب واحد وأم واحدة ، لكن شَتان ما بين الشخصيتين فى كل شىء ، فكأنهما وجهان مختلفان لقطعة من النقود المعدنية .. أحدهما يحمل لمسة الفن الجميلة فى الصورة المميزة للعملة ، والآخر لا يحمل إلا البيانات الجافة عن قيمة العملة وتاريخ إصدارها واسم الدولة المُصْدِرَة !

وهكذا كانا أيضًا فى الحياة ، لا يعرف أحدهما منها إلا الجانب اللامع المُبهج الذى يطلب المتعة ولمسة الفن والجمال فى كل شىء ، ولا يعرف الآخر من الحياة إلا الأرقام الجافة ، والمعاملات الجامدة ، وصراعات الحيتان فى غابة المال والأعمال .

وكل منهما مشغول بدنياه وشواغله عن الآخر ، لا يلتقيان إلا فى

المناسبات العائلية الضرورية والحفلات الباذخة التى تقيمها الأسرة فى مقرها العريق من حين لآخر للاعتبارات الاجتماعية . وحتى حين يلتقيان فى هذه الحفلات التى تحرص عليها أمهما  الثرية قوية الشخصية، فإن كلًّا منهما يطلب فيها شيئًا مختلفًا عن الآخر ، فالشقيق الأكبر العابس دائمًا – والذى حمل بعد أبيه عبء إدارة إمبراطوريته المالية وانفرد بمسئوليتها دون أخيه اللاهى العابث – لا يرى فى هذه الحفلات إلا فرصة لتقوية علاقات العمل والاتفاق على صفقة جديدة، أو تقصى أخبار سوق المال والأعمال من ضيوفه المهمين .

أما الشقيق الأصغر الوسيم فلم يكن يرى فى هذه الحفلات إلا فرصة للتعرف على الجميلات اللاتى  يحضرنها ، فيروح يتنقل بين الحاضرين يوزع ابتسامته وجاذبيته على الجميع ، ويخص أجمل المدعوات باهتمامه ، فينتهى الأمر غالبًا بأن يكتسب ودها ، وتبدأ علاقة غرامية جديدة فى حياته .

والأسرة سعيدة بحياتها ، فالأم تزهو بثرائها وعلاقاتها المتينة بمجتمع الصفوة ، وبنبوغ ابنها الأكبر الذى ضاعف ثروة أبيه خلال سنوات معدودة، وتزهو كذلك باتحاد الرؤية بينهما فى مجال المال والأعمال ، فكلاهما يعرف عن نفسه أنه « ذئب » لايتردد فى

الانقضاض على الفريسة فى الوقت المناسب ، واقتناص مشروعها التجارى بأبخس الأثمان ، ثم لا يتوقف بعد ذلك لحظةً أمام اعتبارات الشفقة أو التعاطف مع الضحية .. ولذلك فالعمل عندهما « حربٍ » بين طرفين لا ينتصر فيها إلا الأقوى والأكثر ثراءً .

والابن الأصغر سعيد أيضًا بحياته وعلاقاته وسهراته ومغامراته، فلقد عَرَفَ منذ وفاة أبيه أن أخاه الأكبر لن يدع له فرصة ملائمة للقيام بدورٍ حقيقىٍّ فى إدارة أموال الأسرة ، فانسحب من المنافسة بهدوء وبلا مرارات ، وصادف ذلك هوًى فى شخصيته الراغبة فى الاستمتاع بكل مباهج الحياة ، فلم يندم على انعدام الدور ، واكتفى بجنى الثمار الحلوة، و « الأسى » لشقيقه الذى لايعرف من الحياة إلا وجهها الجاف .

وكلما التقى الشقيقان فى الصباح ، لام الشقيق الأكبر شقيقه على انصرافه لحياة اللهو ، حتى إنه لم يدخل مكتبه فى مقر إدارة الشركة العملاقة منذ سنوات ولا يعرف حتى أين يقع هذا المكتب ، ولام الشقيق الأصغر أخاه على انصرافه النهائى عن كل مباهج الحياة ، واستغراقه الكامل فى دنيا الأعمال والأموال والأرقام .

والحب فى قلب الأم لكلا الشقيقين عميق وغائر ، وإن مالت – بطبيعتها العملية – إلى تأييد خطة الابن الأكبر فى الحياة .

لكنَّ عينًا أخرى كانت ترقب حياة هذه الأسرة عن قرب وتعايش شواغلها ومشاكلها بقلبٍ يضطرم بالحب الآسر لأحد أفرادها .. إنها هذه الفتاة الصغيرة الجميلة ابنة سائق سيارة الأسرة التى تعيش مع أبيها الأرمل فوق جراج البيت ، وتَتَبَتَّل فى حب الابن الأصغر منذ كانت طفلة صغيرة ، وتقضى الساعات ترقبه عن بُعد وتتأمل تصرفاته وعلاقاته ، وتتابع أخباره بحب خفى صامت .. فإذا صادفها فى الحديقة حيَّاها بلطفه المعهود مع الجميع ، فتضطرب ضربات قلبها حتى لتكاد تعجز عن النطق !

أما أبوها فقد كان يرقب حالها فى فهم وإشفاق عليها ، وينبِّهها من حين لآخر إلى أنه ليس من الحكمة أن تقضى حياتها فى مراقبة ابن الأسرة المدلل واستراق النظر المحروم إليه ، ويذكّرها دائمًا بأنها تطلب المستحيل لأنه لايشعر بها ، وهيهات أن يفعل وهو نجم الأسرة اللامع الذى تتهافت بنات أصحاب الملايين عليه .. والابنة الجميلة تفهم ، وتعرف ، وتسلِّم بكل ما يقوله لها أبوها ، لكن ماذا عساها أن تفعل وهى عاجزة عن السيطرة على عواطفها ومشاعرها التى لم تحمل حبًّا لإنسان سوى لهذا الفتى الرائع ؟ !

ويجد الأب الجواب على هذا السؤال الحائر بأن يقرر إرسالها إلى بلد بعيد لتعمل فيه بعض الوقت ، وتكتسب خبرة الحياة وتتعرف

على وجهها الآخر . وتسافر الفتاة فعلًا مقتنعةً بأنها لابد أن تقاوم هذا الحب اليائس وتتفتح لخبرات جديدة فى الحياة ، وتركب الطائرة إلى مدينة بعيدة وتعمل عملًا جديدًا ، وتحاول بكل الطرق شغل نفسها وأفكارها عن فتى القلب الذى لا يشعر بها .

وتنضج شخصية الفتاة على نار الغربة بالفعل ، وتكتسب فهمًا أكبر للحياة ، ويكتسب جمالها أيضًا نضجًا أعمق وأبهى ، فلقد تخلصتْ من مظهر التلميذة الصغيرة ، وتحولتْ بفضل خبرتها الجديدة إلى فتاة باهرة الجمال ، تعرف كى ترتدى ملابسها ، وكيف تتحدث وتتعامل مع الآخرين .

وخلال غربتها الاضطرارية تمضى الحياة بالأسرة الثرية فى طريقها المعهود فتزداد أعمالها تضخمًا وثراءً ، وينتهى المطاف بالشقيق الأصغر إلى الارتباط بطبيبة شابة جميلة يتفق معها – دون أن يعرف كيف فعل هذا – على الزواج ! .. ويسعد شقيقه الأكبر وأمه لأول مرة بعلاقة من علاقاته المتعددة ، لأن الفتاة – من حيث لم يكن يدرى – هى ابنة صاحب ملايين خطير ، كان شقيقه الأكبر يتفاوض معه بالصدفة على اندماج شركتيهما معًا فى إمبراطورية واحدة .

وتعتبر الأم والشقيق الأكبر هذا الارتباط الجديد شأنًا من شئون

الأسرة ينبغى إنجاحه وإتمامه ، وإلا انسحب والد الطبيبة العنيد من مشروع الاندماج وقَبِلَ عرضًا من العروض الأخرى المتاحة له . وتتضافر جهود الأم والابن الأكبر لإنجاح العلاقة والمضىّ بها إلى طريق الزواج .

وفى الفترة الحرجة التى تسبق إتمام الارتباط - والتى بدأ الفتى المدلل يستشعر فيها ثِقل المسئولية التى يقدم عليها - رجعتْ تلك الفتاة الصغيرة الجميلة من غربتها إنسانةً أخرى .

وما أن وصلتِ الفتاة إلى وسط المدينة بأتوبيس المطار ، حتى خرجت إلى الشارع تبحث عن وسيلة مواصلات تحملها إلى أبيها ، فإذا بها تراه أمامها بوجهه الوسيم وجاذبيته الساحرة !

يا إلهى !.. لقد كان وجهه لا يغيب عن مخيلتها لحظة واحدة طوال أيام الغربة ، فإذا به يكون أول مَن تراه بعد العودة !

ابتسمتْ له بترحيبٍ متوقعةً أن يخف لاستقبالها بحرارة كما يفعل مع كل من يعرفه ، لكنه ابتسم لها فقط على البعد فى شك وتردد ، ثم التقطتْ عيناه الخبيرتان جمالها الساحر ، فاقترب منها فى حذر وسألها : هل تعرفيننى ؟ فأومأت له بالإيجاب ، فعرض عليها توصيلها إلى حيث تريد ، فركبت معه سيارته وهو لايعرفها ،

واندهش حين عرف أن طريقهما واحد ، واكتشف بعد وصول السيارة إلى بيته ومغادرتها له أنها نفس « الطفلة » الجميلة التي كانت تخصه دائمًا بنظراتها الحارة طوال السنوات الماضية ، فيتوقف مذهولاً أمام الاكتشاف الخطير ويدعوها لحضور الحفل الذى تقيمه الأسرة فى المساء، ليبدأ فصل جديد وخطير فى حياة هذه الشابة الجميلة التى لفتت – أخيرًا – انتباه هذا الفتى الرائع، فبدأ يتعامل معها كفتاة جميلة وليس كطفلة صغيرة !

وخلال الحفل الذى أقامته الأسرة فى حديقة بيتها ، رَكَّزَ الشاب الوسيم اهتمامه حول هذه الطفلة السابقة التى أصبحتِ الآن شابة رائعة الجمال ، حتى استشعرت الأم والشقيق الأكبر الخطر الذى يقترب من مشروع ارتباطه بابنة صاحب الملايين ، ولاحظ الرجل نفسه اهتمام خطيب ابنته بهذه الفتاة الجميلة وتَشَكَّىٰ من ذلك ، فنهض الشقيق الأكبر لإنقاذ مشروع الاندماج القادم بين أعمال الرجلين .

وفى حين كانت الفتاة الجميلة تنتظر نجم الأسرة الوسيم فى بيت النباتات الزجاجى فى الحديقة كما طلب منها ،وقع له – وهو فى طريقه متسللًا إليها – حادث صغير جُرِحَ فيه ببعض شظايا الزجاج ، وطلبتْ له الأسرة الطبيب .

وذهب الشقيق الأكبر إلى الفتاة الجميلة فى بيت النباتات يبلغها أن أخاه لن يستطيع الحضور ، ثم طلب منها - بعد قليل من المراوغة - الابتعاد عنه لكيلا تدمر مشروع زواجه .. عارضًا عليها أن يعوضها ماليًّا عن ذلك !

وتأسى الفتاة لما حدث لفتاها ، وتأسى أكثر لهذا العرض المخجل من شقيقه الأكبر ، لكنها لم تغضب منه .. وخلال الأيام التى قضاها الشاب طريح الفراش ، غَيَّرَ الشقيق الأكبر خطته لإبعادها عنه بعد فشل أسلوب الإغراء المادى معها ، وبدأ يركز اهتمامه الشخصى عليها ليشغلها عنه ، فافتعل تكليفها بعدةِ مهامٍ تقتضى أن يصاحبها فيها لأطول وقت ممكن ، ودعاها للعشاء فى أحد مطاعم المدينة ليقضى معها ساعات طويلة يتحدثان ويتسامران ، حتى صَارَحَتْهُ بأنها - وكل من يعملون لدى هذه الأسرة - يخشونه ولا يتصورون أن وراء قناعه الجامد هذه الشخصية اللطيفة .

وتأتى الفتاة لتزور الشقيق الأكبر فى مكتبه - كما طلب منها - استعدادًا للقيام معًا برحلة إلى المدينة التى قضت فيها فترة الغربة ، فتفاجأ به يعترف لها بحقيقة الهدف من اقترابه منها خلال الفترة الماضية، وبأنه لا يحبها كما أوهمها ،وإنما يريد إبعادها عن شقيقه

لإنقاذ مشروع زواجه ، ثم يكشف لها كل أوراقه ، فيقول لها إنه كان ينوى أن يصطحبها إلى تلك المدينة البعيدة ويتركها هناك بعد أن يرتب لها سكنًا مناسبًا ومرتبًا شهريًّا من الشركة ، ثم يرجع فى اليوم التالى إلى عمله وحياته .

وتتغير الفتاة – التى كانت قد بدأت تتشكك فى جدية مشاعرها الطفولية تجاه الشقيق الأصغر – لتكتشف جاذبية هذا الأخ المتجهم وتتأثر به ، وتلمع فى عينيها دمعة حائرة ، ثم ترفض كل ما عرضه عليها، وتقبل فقط تذكرة الطائرة وتودّعه غير عاتبة لكى تستعد للسفر فى اليوم التالى بلا عودة ، ثم تنصرف كسيرة القلب والخاطر .

ويجد الشقيق الأكبر نفسه لأول مرة لا يسعد بانتصاره فى معركة جديدة من معارك العمل والمنافسة التجارية ، وتلمح الأم – الخبيرة بالنفوس البشرية – مسحة الأسى الغامض فى وجهه وعينيه وهو يبلغها بانتهاء مشكلة هذه الفتاة .

وفى اليوم التالى يذهب إليه فى مكتبه شقيقه الأصغر بعد أن شفى من جراحه واكتشف ما فعل شقيقه بهذه الفتاة الصغيرة ، فيثور عليه ثورة عارمة ويلكمه فى وجهه لكمة قوية خلال انفعاله ، فيتحمل الأخ الأكبر اللكمة صابرًا ، ثم يفاجئه بآخر ما كان يتوقعه منه ، إذ طلب منه – وهو يجفف الدم فى وجهه من أثر اللكمة – أن يلحق بهذه الفتاة

قبل أن ترحل ، وأن يسافر معها فى الرحلة التى كان مقررًا أن يسافر إليها معها لأنها تحبه بصدق ، ولأنه يريدها .. ولابأس بأن تخسر الأسرة إحدى معاركها التجارية إذا كان فى ذلك سعادة أحد أفرادها .

ويقف الشقيق الأصغر مذهولًا أمام ما يسمع منه .. فليس هذا هو شقيقه الأكبر الذى لا يعترف بأن فى الحياة شيئًا يستحق أن يعرقل من أجله خطوة ناجحة من خطوات العمل والثراء .. وليس هذا هو الشقيق الذى يُخيَّلُ إليه أنه لا يضم فى قفصه الصدرى سوى آلة حاسبة لا تأبه إلا للربح والخسارة .

ثم ما هذه النظرة الحزينة فى عينيه ؟ وكيف أمضى ليلته فى مكتبه بعد أن كشف أوراقه لتلك الفتاة البريئة ؟

وما معنى ما يقوله له من أنه قد استدعى صاحب الملايين لمقابلته فى مكتبه بعد ساعتين لينهى إليه نبأ فسخ ارتباط شقيقه الأصغر بابنته ويدع له أن يفعل بمشروع الاندماج ما يشاء أن يفعله ؟

لا .. إنه ليس صوت شقيقه – الذى يعرفه جيدًا – ولا تفكيره .. فماذا جرى له ؟ !

وتلمع « الفكرة » فى خاطره فجأة ، فينظر إليه فى فهم ثم ينسحب من مكتبه وقد اعتزم أمرًا خطيرًا .. ويتوجه إلى مكتبه بالشركة لأول

مرة منذ سنوات ، ويطلب من سكرتيرة شقيقه اللحاق به ، ويكلفها ببعض المهام فى سرية تامة ، ثم يتصل بخطيبته الطبيبة الشابة ويطلب منها الحضور إليه على الفور لمساندته فيما يعتزم أن يفعل ، ويتصل كذلك بأمه .

وفى الموعد المحدد للاجتماع الخطير بين الشقيق الأكبر وصاحب الملايين لفض مشروع الاندماج ، يبدأ الشقيق الأكبر فى الحديث عن الضرورات العائلية التى قد تفرض على الإنسان أحيانًا اعتبارات هامة قد تتعارض مع مصلحة العمل .. وقبل أن يتم عبارته فوجىء بشقيقه الأصغر يدخل إلى المكتب ومعه خطيبته ويكمل عبارة شقيقه قائلًا : وتقديرًا لهذه الاعتبارات الهامة للغاية فإنه يستأذن صهره صاحب الملايين فى أن ينوب عن شقيقه فى توقيع أوراق عقود الاندماج بين الشركتين ، لأن شقيقه الأكبر مضطر - للأسف - للسفر الآن فورًا لأمر عاجل !

ويذهل الشقيق الأكبر لما يسمعه ويراه ، ولا يدعه شقيقه لذهوله طويلاً ، وإنما يقول له إنه قد أبلغ تلك الفتاة فى كبرياء وشمم أنه لا يقبل « ببقايا » أخيه ! ولكنه لا يكمل عبارته لأن شقيقه الأكبر قد أفلتت أعصابه ، وإذا به يلكمه لكمة قوية يرتج لها الفتى ، لكنه يهتف بالرغم من ألمه ضاحكًا وسعيدًا :

– ألم أقل لكم إنه يحبها ؟.. إنه يحبها كما قلت لكم !!

ثم يتوجه إليه بحديثه ويحثه على اللحاق بفتاته قبل أن تطير بها الطائرة ، لأن الحب الحقيقى لا يتكرر كثيرًا فى حياة الإنسان ، ولأنه لم يعرف طعم الحياة إلا منذ اقتربت منه هذه الفتاة واقترب منها ، ويختتم حديثه له قائلًا : فهيا يا شقيقى لا تضيع فرصتك فى السعادة ، فأنت تستحق هذه الفتاة الجميلة الطيبة ، وهى تستحقك ، ولقد أعددنا لك كل شىء .. وحقيبة ملابسك مع سكرتيرتك ، وتذكرة الطائرة جاهزة، فَاجْرِ لكى تلحق بسعادتك قبل أن تطير إلى السماء ، ولا تضيع الفرصة التى لاتأتى إلى الإنسان مرتين فى الحياة !

ويقف الرجل مشدوهًا ينظر إلى الحاضرين ، فيجد دمع الفرح يترقرق فى عينى أمه ، وعينى خطيبة شقيقه ، بل وأيضًا فى عينى صاحب الملايين شريك العمل .. فتساءل فى تخاذل : وماذا عن العمل .. ومشروع الاندماج ؟.. فيقدم إليه شقيقه الأصغر ورقة يطلب منه أن يفوضه فيها بالتوقيع نيابة عنه على كل الإجراءات ، ويدفعه دفعًا للخروج من المكتب والذهاب إلى المطار وهو يطمئنه على العمل وعلى كل شىء ، ويؤكد له أنه يعرف كل أسرار العمل ويقرأ تقارير المتابعة بانتظام منذ سنوات ، لكنه لم يكن يجد لنفسه دورًا معه ، والآن قد جاء دوره هو لكى يعرف بعض السعادة وبعض الاستمتاع بالحياة .

وفى لحظة « تنوير » خاطفة يعترف الرجل لنفسه بكل ما قاله شقيقه الأصغر الذى كان يظنه مجرد فتى عابث لا تهمه فى الحياة إلا مغازلة الفتيات ، ثم يخطف الحقيبة والتذكرة من يده ويهرول خارجًا من المكتب .

وفى السيارة التى يقودها والد الفتاة يسأل الرجل سائقه الأمين وسائق أبيه لسنوات طويلة عن عنوان ابنته فى المدينة التى رحلتْ إليها، ويحثه على الإسراع للحاق بالطائرة التالية لطائرتها .

ويصارع السائق زحام السيارات فى الطريق إلى أن يصل إلى نقطةِ اختناقٍ يتعذر عليه بعدها أن يواصل التحرك ، فيلتفتُ إلى السيد الجالس فى المقعد الخلفى ويقول له بلهجة موحية :

- الآن قد جاء دورك يا سيدى لكى تواصل الرحلة جريًا على الأقدام ، فاجْرِ يا سيدى إذا أردت اللحاق بطائرتك !

ولا يتردد الرجل فى العمل بنصيحته ، ويغادر السيارة جاريًا بين زحام السيارات الواقفة ليلحق بطائرته وبسعادته وبالحياة الحقيقية التى لم يتعرف على مذاقها طوال سنواته الماضية إلا حين استمع لأول مرة فى حياته إلى نداءِ ساحرِ غامضٍ آخر يختلف كثيرًا عن نداء الأرقام وطموح المال !

وتنتهى هذه القصة الرومانسية الساحرة التى كتبها المؤلف المسرحى الأمريكى « صامويل تايلور » كمسرحية قدمت باسم «سابرينا » فى مسارح برودواى بنيويورك فى بداية الستينيات ، ثم قَدَّمَتْها السينما الأمريكية بعد ذلك مرتين : كانت الأولى فى الستينيات ، وكانت الفتاة الجميلة الحالمة فيها هى « أودرى هيبورن » .. ومرة أخرى فى بداية التسعينيات ، وكانت الفتاة الجميلة فيها هى « جوليا أورموند » التى تقترب فى براءة ملامحها إلى حد كبير من ملامح «أودرى هيبورن » .

أما المغزى فى كل الأحوال فقد كان واحدًا ، وصادقًا ، ومؤثرًا وهو: « اجْرِ وراء سعادتك » ، وإلا فاتتك الفرصة إلى الأبد فلم ترجعها إليك الحياة بعد ذلك مرة أخرى .

فمتى يعمل الإنسان بهذه الحكمة الذهبية ؟

ومتى يفهم مغزاها .. ومعناها ؟

# الحب بدعوة ملكية

أول سؤال يخطر ببالى حين ألتقى بزوجين شابين هو : كيف التقيا .. وتزوجا ؟

وفى معظم الأحيان أسمع الإجابة الشائعة عن هذا السؤال وهى : القسمة والنصيب . وفى أحيان أخرى أسمع إجابة مختلفة هى الحب ، أو الجوار .. أو القرابة ، أو زمالة العمل ، فلا أرى فارقا كبيرا بين هذه وتلك .. فالحب أيضاً من قدر الإنسان ، وكذلك علاقات الجوار والقرابة وزمالة العمل .

ولقد يتجاور البشر أو يتزاملون فى العمل .. أو تجمعهم صلة القرابة .. ولا يتحابون ولا يتزوجون ..لأنهم لم يلتقوا بأقدارهم فى هذه المجالات .. والتقوا بها فى مجالات أخرى بعيدة عن توقعاتهم .

ولهذا فإنه حين يشكو لى بعض الشباب وبعض الفتيات من أنهم لم يلتقوا بعد بشركاء حياتهم، لا تزيد نصيحتى لمن يسألنى منهم عما يفعل لكى يحصل على فرصته العادلة فى السعادة على أن أقول له : لا تفعل شيئا .. فقط واصل حياتك فى هدوء وأمل فى الغد.. والتزم بالفضائل الأخلاقية .. والمثل العليا .. واستمتع بعملك وبعلاقات الصداقة والزمالة والقرابة والجوار ، ولسوف يلتقى بك قدرك أو تلتقى به حين تجىء إشارة السماء بذلك .

وربما أستعيد إلى ذاكرتى قصيدة ذلك الشاعر الأمريكى التى تقول لكل مشغول بأمره :

استمر .. استمر

واصل الطريق

ولسوف تجد حلا لما تشكو منه

ولن تجده أبدا

إذا توقفت الآن فى مكانك !

ولقد أقول له أيضا : إن حظوظنا فى الحياة هى التى تتبعنا .. ولسنا نحن الذين نتبعها ، ولو خيل إلينا فى بعض الأحيان غير ذلك ..

ذلك أنه حتى من يقولون إنهم قد صنعوا حياتهم بأيديهم ..

واختاروا رفاقهم فى رحلة العمر بإرادتهم لا يستطيعون إنكار دور السماء التى وضعتهم فى طريق أقدارهم .. أو وضعت أقدارهم فى طريقهم.. وأذنت للطرفين بالالتقاء والتوافق .

وأما متى يجىء إليك حظك فى الحياة .. فإنه – كما يقول البسطاء – قد يجىء لأهون الأسباب .. أو أغربها .. وأحيانا أطرفها !!

أعرف صديقا كان مهموما بالبحث عن نصفه الآخر وصادفه سوء التوفيق فى عدة محاولات ، ثم تعاطفت معه زميلة له فى العمل .. ورشحت له جارة شابة لها رأت فيها كل المزايا التى يبحث عنها ، ودعته لزيارتها فى بيت أسرتها لكى تتيح له رؤية هذه الجارة بغير أن تلفت نظرها إلى الغرض الحقيقى من زيارته . وتوجه صديقى إلى بيت زميلته فى الموعد المحدد ووجد لديها شابة جميلة ومهذبة .. صافحها ضمن من صافحهم من إخوتها وهو فى طريقه للصالون .. وبعد قليل دخلت إليه زميلته بصينية الشاى .. ففوجئت به يقول إنه أعجب بمن رشحتها له ويريد الارتباط بها .. وتعجبت الزميلة كيف أعجب بها وهى لم تأت بعد من مسكنها المجاور ! وتعجب الصديق لعجب زميلته وسألها : أليست هى هذه الفتاة المهذبة التى تجلس مع والدتك وإخوتك ، وأجابته بالنفى وقالت له : إن هذه الفتاة هى ابنة شقيقها وقد مرَّت اليوم ببيت الأسرة بالمصادفة وهى فى طريق عودتها من عملها بعد غيبة لا تقل عن أسابيع !

لكن .. سبق السيف العذل كما يقولون ..فلقد ولدت الشرارة المقدسة فى قلب هذا الصديق .. وأراد الارتباط بهذه الفتاة التى ساقتها أقدارها إليه على غير انتظار ! .. ولم يمضِ عام على هذا اللقاء العابر حتى كانا قد تزوجا وسعدا بحياتهما ونجح زواجهما .

فهل عندك تفسير لما حدث سوى أنها الأقدار التى قد تجمع بين الغرباء .. وقد تفرق أحيانا بين المتجاورين !

أعرف صديقا آخر كان كاتبا صحفيا شهدت حياته الشخصية بعض الأعاصير والزوابع ، فلقد تزوج مرتين وأنجب من كلا الزوجتين ، ثم شهدت حياته مع الزوجة الثانية بعض الخلافات الحادة التى فشل كلاهما فى احتوائها ، وتم الانفصال بينهما ، وبعده ببضعة أسابيع قليلة شكا من آلام فى أسنانه وتوجه إلى زيارة طبيب صديق له فى باب اللوق ، ووقف ينتظر المصعد بين زحام المنتظرين ، ثم جاء المصعد فتسابق إليه المنتظرون ، وكان من بينهم سيدة متوسطة العمر جميلة ومحتشمة المظهر لفتت نظره منذ الوهلة الأولى ، فتأخر هو ليتيح لها فرصة الدخول .. وشكرته فى أدب على رقته .. ثم أراد أن ينضم إلى ركاب المصعد غير أن العامل أشار إليه باكتمال العدد ، فتراجع عنه وأغلق العامل الباب ، لكن المصعد لم يتحرك بالرغم من ذلك ، بل انفتح بابه مرة أخرى وخرجت منه سيدة كانت

قد سبقت زوجها للمصعد ، ولم يجد هو لنفسه مكانًا فيه ، فآثرت الخروج وانتظار المصعد الآخر مع زوجها .. فكانت فرصة صديقى الكاتب الصحفى للحاق بالمصعد وبقدَره أيضا مع السعادة .. فلقد دخل المصْعد مبتسما للمصادفة التى جمعته من جديد مع السيدة الجميلة .. ولم يكن صعبا أن يختلق من وحى الموقف تعليقا مناسبا ابتسمت له السيدة .. ثم اكتشف الاثنان أنهما ذاهبان إلى نفس الطبيب، فجمعت بينهما غرفة الانتظار مرة أخرى ، ولم يمض على لقاء المصادفة هذا شهران فقط حتى كانا قد تزوجا وشهد على عقد زواجهما طبيب الأسنان الصديق .

وكانت هذه الزيجة هى أنجح الزيجات التى شهدتها حياة هذا الكاتب الصديق وأطولها ! وكانت هذه السيدة هى التى انطوت صفحة حياته وهو يعيش آمنا سعيدا فى ظلها .

فهل عندك تفسير لذلك سوى أنها الأقدار التى قد تجدل خيوط البشر أو تفرق بينهم ؟

إنه ليس الحب من النظرة الأولى كما قد تتصور ، إذ أنه فى الحقيقة ليس هناك حب من النظرة الأولى أو العاشرة .. والحب من النظرة الأولى هو قرين الجنون كما يقول أحد الأدباء الامريكيين ، لأن

الإنسان لا يحب أحدا لم يعرفه .. ولم يتعامل معه وتتشابك الخيوط بينهما ، لكنه فقط الإحساس بالاستعداد النفسى لتقبل من رأته العين للمرة الأولى .. ثم تنسج عوامل التعارف والصحبة والتفاهم خيوط القصة المشتركة بين الطرفين . وقد تنجح فى ذلك .. وقد تفشل .. وفى كل الأحوال سوف يظل ما يسمى بحب النظرة الأولى مجرد بطاقة تعارف بين غريبين رشحتهما الأقدار للامتزاج والترابط !

وحتى فى قصص الحب والزواج التى يخيل لأصحابها أن دور الإرادة الشخصية هو الدور الحاكم فيها ، تظل دائما للأقدار كلمتها العليا فى الجمع أو التفريق بين أصحابها.

فالملكة العظيمة « فيكتوريا » كانت قد تعرفت على الأمير الشاب «ساكس جوتا » قبل عام من اعتلائها لعرش إنجلترا .. وأعجبت بشخصيته .. ثم تولت العرش .. وبعد عامين من اعتلائها له لعلها لم تتذكره خلالهما كثيرا ، التقت بهذا الأمير ذات يوم مع غيره من أفراد الأسرة المالكة ، فإذا بإعجابها السابق بشخصيته يتحول فى لحظة سحرية مفاجئة إلى حب ، وإذا بها بعد ذلك بأيام تستدعيه لمقابلتها ، وتستقبله فى قاعة العرش وهى تضع فى إصبعها خاتما ماسيا كبيرا يحمل صورته ، ثم فاتحته بحبها .. وبعد عام من هذا اللقاء الفاصل تزوجته وعاشت معه ٢١ عاما من السعادة الخالصة ، كانت خلالها

مثالا للجمال والزوجة المحبة الصالحة ، ثم مات فانكسر قلبها واعتزلت الدنيا حزنا عليه ، إلى أن نجح رئيس وزرائها « ديزرائيلى » فى إخراجها من عزلتها ، فخرجت وبنت الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس وزينت تاجها بدرة الهند !

لقد كان حبا بدعوة ملكية .. ولكن ماذا لو لم يستجب الأمير الشاب لهذه الدعوة الكريمة ؟وماذا لو لم يكن الإعجاب بشخصيته قد تحول فجأة فى تلك اللحظة السحرية إلى حب فى قلب الملكة الشابة ؟

هل كانت الإرادة وحدها تكفى للجمع بين شخصين لم يكتب لهما فى اللوح المسطور من قبل أن يولدا أن تجمع بينهما حياة واحدة ؟ لقد أراد الروائى الإنجليزى العظيم « تشارلز ديكنز » أن يتزوج الفتاة التى أحبها « ماريا بندل » ابنة مدير أحد المصارف بإنجلترا .. ولقد كان عاشقا متيما بها ، لكنها رفضت حبه وقالت : إن تشارلز شاب لطيف .. لكنه أديب .. فهل يستطيع أن يعولنى بقلمه ؟ وتحولت عنه وتزوجت من تاجر ثرى ، وتزوج تشارلز بعد سنوات زواجا تقليديا لم يسعد به كثيرا ، ولم يعجز أيضا عن احتماله .. وقال عنه النقاد إنه قد رضى بالمزيج المعتدل من النجاح الأدبى والتعاسة الزوجية ، فلم يمض على زواج ماريا بزوجها التاجر سوى بضعة أعوام حتى تعثرت تجارته وأفلس وعاشت معه حياة جافة محرومة .. فى حين

حقق ديكنز نجاحا أدبيا وماديا هائلا ودرت عليه رواياته مالا وفيرا حتى أصبح من أغنى الأغنياء فى إنجلترا .

وعلى العكس من قصة ماريا مع تشارلز .. فلقد تزوج المفكر الفرنسى « مونتسكيو » من ابنة جنرال قديم من جيران بيته فى ريف «بوردو » .. ولم تكن أسرتها غنية ولا كانت هى نفسها جميلة أو مغرية .. وسئل مونتسكيو : ماذا أعجبك فيها لكى تتزوجها ؟ فأجاب: أعجبتنى رجاحة عقلها عندما تحدثت إليها ذات مرة حين زرت أباها !

وصدقت فراسة المفكر الكبير فى من تزوجها ، فلقد نجحت فى إسعاده وتوفير كل أسباب الراحة والنجاح له ، وكان يغادر « بوردو» إلى باريس ليلتقى بأدبائها ومفكريها تاركا لها توكيلا بإدارة أملاكه وأعماله .. فتديرها عنه بحكمة ..ولا تعترض طريق حريته الشخصية وأعماله الفكرية ، وتسعد بعودته إليها بعد بضعة أسابيع أو شهور من باريس ليحدثها عما فعل وما شهد من محافل أدبية وفكرية فى العاصمة الفرنسية !

أما الروائى الروسى العبقرى « ديستويفسكى » فلقد احتاج إلى سكرتيرة لكى يملى عليها كتابه الذى يؤلفه إلى جوار فراش زوجته المحتضرة ..لأنه لا يريد أن يفارقها إلى غرفة المكتب فى أيامها الأخيرة

.. ولا عجب فى ذلك فقد أحبها سنوات طويلة وانتظر بصبر عجيب حتى ترملت لكى يتزوجها ، ولم تطل عشرتها له كثيرا حتى مرضت مرضا شديدا ..ولازمت الفراش .. واقتربت منها النهاية المحتومة .

وجاءت السكرتيرة الشابة لتؤدى مهمتها ، فنظرت فى إجلال إلى وجه الرجل الذى يلازم فراش زوجته وهو يؤلف كتابه .. ورحبت بأداء المهمة بحماس وإخلاص ، فما أن تم الكتاب حتى كانت زوجته قد ماتت ، وشعر ديستويفسكى بالقلق والاضطراب ، لكن السكرتيرة الشابة بددت قلقه ومخاوفه وقالت له : لا يمكن أن تجمع الأقدار بين جبلين متباعدين ، لكنها تستطيع أن تجمع بين رجل وامرأة يحتاج كل منهما للآخر ! ثم تزوجته وحلت محل زوجته الراحلة .. وعوضته عن كل تعاسته السابقة !

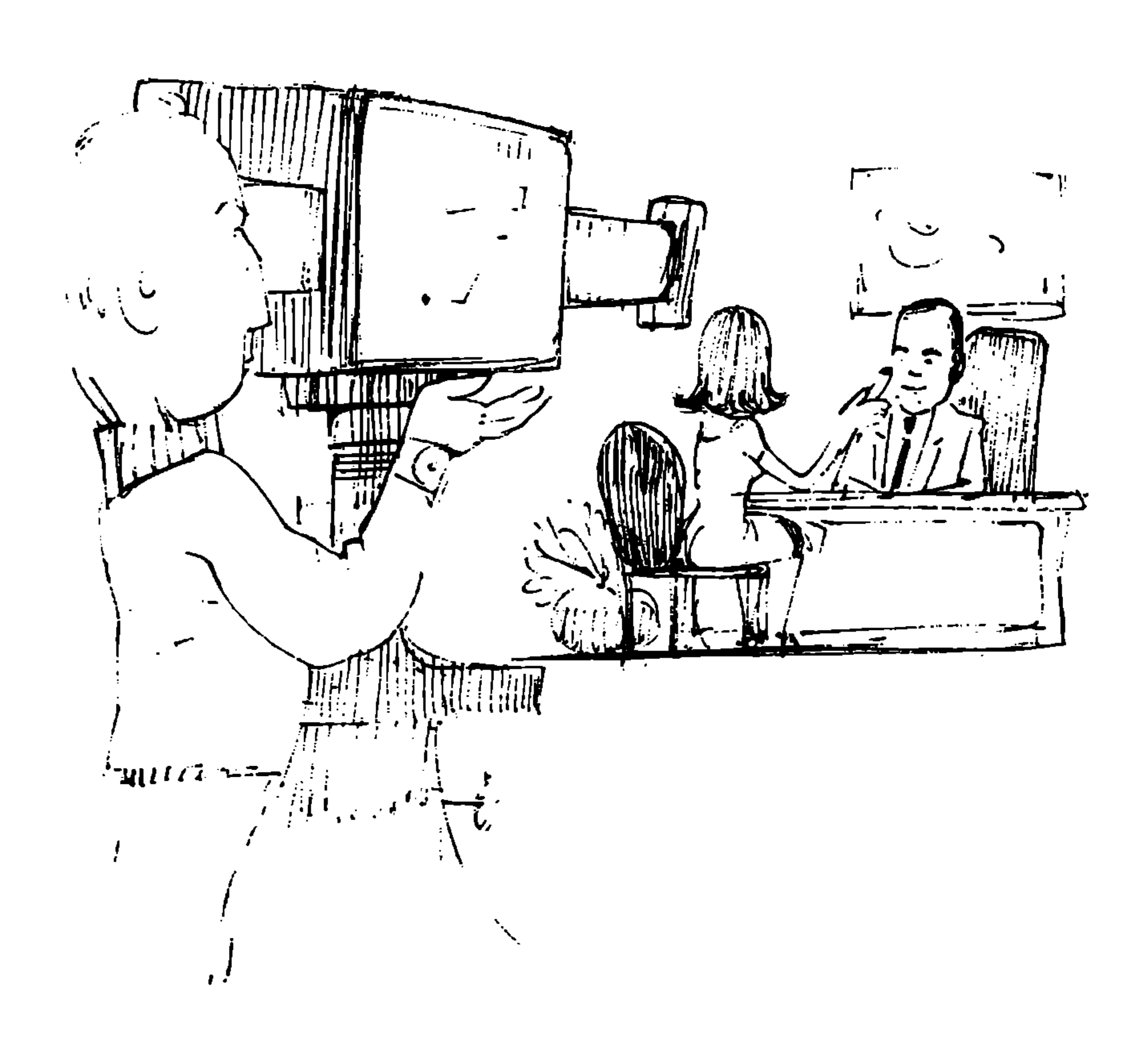
والدكتور لويس عوض انتقل إلى فندق صغير بشارع المدارس « رى ديزيكول » بالحى اللاتينى بباريس خلال دراسته فى السوربون ، فتعرف فيه بمن أصبحت بعد ذلك زوجته ، وتزوجها فى نفس هذا الفندق وشاركته رحلة العمر حتى رحل عن الحياة بعد أكثر من ٤٠ عاما من لقاء المصادفة بينهما فى هذا الفندق الصغير .. وسعد بحياته معها .. ولم ينكر عليها شيئا سوى ولعها الغريب باقتناء ١٠ قطط على الأقل فى بيت الزوجية طوال رحلة العمر !

والدكتور طه حسين احتاج إلى مرافقة تأخذ يده إلى جامعة السوربون خلال دراسته ،وتقدمت لأداء هذه المهمة فتاة صغيرة من سكان البيت الذى يقيم به بالقرب من الجامعة .. ثم تقدمت أيضا للقراءة له فى ساعات المساء بعد العودة من الجامعة ، فأحبها فى صمت، وكتم حبه عنها فترة طويلة ، إلى أن عجز عن احتماله وصارحها به .. فطلبت منه أن يمنحها مهلة للتفكير فى الأمر خلال شهور الصيف التى ستبتعد خلالها عنه حين تذهب إلى الجنوب ، فإذا أرسلت إليه خطابا تدعوه للحاق بها هناك فسيكون ذلك إشارة بقبولها لحبه وموافقتها على الزواج منه ، وترقب هو فى باريس صابرا هذا الخطاب السحرى شهرين مريرين إلى أن جاء إليه أخيرا .. فأسرع بالسفر إليها فى الجنوب وبدأت قصة العمر التى دامت بينهما حتى رحل عن الحياة بعد أكثر من ٥٠ عاما من بدايتها !

وغير هؤلاء كثيرون التقوا بأقدارهم أو التقت بهم أقدارهم ، حيث لم يتوقعوا أن يكون اللقاء .

فإن كنت لم تلتق بعد بأقدارك .. فلا تيأس من انتظارها .. وأعن نفسك على أن تكون مستعدا لاستقبالها حين تجىء إشارة السماء ، ذلك أن الفرص السانحة قد تمر بنا دون أن نتعرف عليها فى الوقت المناسب كما يقول لنا المفكر الفرنسى « ريشليو » .

وليس أظلم لنفسه ممن يضيع على نفسه فرصة السعادة ، ولا أتعس ممن تسنح له سوانحها .. فيجهلها أو يتعامى عنها أو يتباطأ فى اقتناصها إلى أن تمضى عنه وتتجاوزه إلى غيره ممن هم أكثر يقظة عقلية وحكمة وتنبها ..لالتقاط الثمرة الهابطة من السماء ..والتمسك بها .. والدفاع عنها .



# غـريبـة يـا دُنيـــا

يا إلهى ! .. كأن كلَّ من ألتقى به من المذيعين والمحررين الذين يُجرون معى لقاءات صحفية أو تليفزيونية أو إذاعية قد اتفقوا فيما بينهم على أن يوجهوا لى هذا السؤال المحيِّر نفسه فى كل مرة :

– ما هى أغرب وأطرف مشكلة صادَفَتْكَ خلال تعاملك مع هموم الناس فى بريد الجمعة ؟

نعم .. فلابد من هذا السؤال فى بداية الحوار أو وسطه أو نهايته ، ولابد من أن أُجهد عقلى وذهنى لأتذكر أغرب المشاكل وأطرفها ، فأفاجأ – كل مرة – بأنه قد تبخرتْ فجأةً من ذاكرتى كل الغرائب التى صادفْتُها وتعاملتُ معها خلال الأعوام الثمانية عشرة التى كتبتُ خلالها بريد الجمعة ، فأعجز فى أحيان كثيرة عن تذكرها لكى أُرضى

فضول مُحاوِرَتِى أو مُحاوِرِى ، وأُضْطَرُّ أحيانًا - فى النهاية - للاعتذار بأننى لكثرة ما صادفتُ من غرائب لم أعد أستغرب شيئًا أو أتعجب له من نزعات النفس البشرية التى لايستطيع أن يحيط بكل أسرارها أحد ، ولذا .. فلكثرة ما رأيتُ لم أعد أتذكر شيئًا !

لكنَّ هذه الإجابة لا تُرضى من يحاورنى ، فَيُلِحُّ عَلَىَّ بأن أُجهد ذهنى لأتذكر بعض غرائب المشاكل حتى يكتمل الحوار الذى يجريه معى ..

وأَتَحَرَّجُ من الرفض .. فأعود لأحاول اعتصار ذاكرتى مرة أخرى لأستخرج منها بعض المشاكل غير المألوفة ، فأنجح بعد معاناة وأتذكر مثلاً قصة ذلك الرجل الذى نشرتُ رسالته فى بريد الجمعة بعنوان «الدعاء » ، والذى ماتت زوجته بعد عِشْرَةِ ٢٥ عامًا لم يكونا خلالها على وفاق فيما يبدو ، فسار فى جنازتها يدعو عليها لا لها .. ويسأل ربه - غفر الله له - أن يُضَيِّقَ عليها قبرها كما ضَيَّقَتْ عليه حياته ، « ويتذكر » لها أنها كانت عونًا للزمن عليه ولم تكن عونًا له على الزمن ، وأنه طوال سنوات عِشرتهما لم يَرَ منها إلا « قفاها » لأنها كانت دائمة الخصام معه .. فأروى لمحدِّثى هذه القصة ويسألنى عما أجبتُ به على رسالته ، فأجيبه بأنى قد قسوتُ عليه لأنه عاش مع زوجته كل هذه السنين وهو ينطوى لها على كل هذا البُغض دون أن

يرغمه أحد على معاشرتها ، وحتى إنْ كانت ظروف قاهرة قد حالتْ بينه وبين الانفصال عنها ، فإنها الآن قد انتقلتْ إلى جوار ربها ولم تَعُدْ تستحق منه إلا الدعاء لها بالرحمة وليس عليها بالجحيم !

أو أتذكر أيضًا قصة الزوجة الشابة التى كَتَبَتْ لى تشكو من زوجها الذى « يُعايرها » دائمًا بأنفها الكبير ، ولا يناديها أمام أطفالها إلا بـ « أم منخار » رغم بكائها وتوسلها إليه أن يعفيها من هذا النداء الذى يجرح مشاعرها كزوجةٍ وأُمٍّ وشريكةِ حياةٍ مخلصةٍ مُحِبَّةٍ ، فلا يكف عن ذلك .. حتى طالبَتْهُ فجاةً بالطلاق .

وتتولى الزوج دهشة طاغية فيسألها باستنكار :

– الطلاق ؟ لماذا .. هل ضربْتُكِ بسكين ؟

فلا تفيد معه دموعها ولا محاولتها لإقناعه بأنه يؤلم مشاعرها بهذا العبث أكثر مما يؤلمها جرح السكين ، وتناشدنى فى رسالتها أن أوضح له ذلك .. فأنهال عليه لومًا وأطالبه باحترام مشاعر زوجته وتجنب إيلامها بهذه العبارة السخيفة ، حتى ولو كانت من باب المداعبة ما دامت تتألم لها .

ويبتسم القُرّاءُ حين يقرأون رسالة هذه الزوجة .. ثم لايلبثون بعد أقل من عامين أن « يمصمصوا » الشفاه أسفًا عليها حين يكتب لى

زوجها رسالةً أخرى ينعى إلَىَّ فيها زوجته الطيبة المخلصة هذه بعد مرضٍ عارضٍ لم يَطُلْ سوى أسابيع ، ويتذكر بحسرةٍ مؤلمةٍ كيف كانت « أجمل » النساء وأكثرهن إخلاصًا لزوجها وبيتها وأطفالها .. ويلوم نفسه – حيث لا ينفع اللوم – على أنه كثيرًا ما جرح مشاعرها بتلك العبارة السخيفة ، وهو لا يدرى أنها سوف تغيب عن حياته بعد أقل من عامين وتترك وراءها صغارًا حائرين .. وزوجًا حزينًا !

فأرد على رسالته الحزينة بمواساته متجنبًا تذكيره بما آلَمَ به زوجته طويلًا ، لأنه يتذكره جيدًا ويندم عليه .. ولكن بعد فوات الأوان .

أو اتذكر أيضًا قصة ذلك الأب الذى غادر مدينته المحلة الكبرى إلى الإسكندرية ليُجرى جراحة فى عموده الفقرى بمستشفى المواساة ، فقرأ وهو فى غرفته بالمستشفى قبل إجراء الجراحة رسالةً نَشَرْتُها فى بريد الجمعة بعنوان « فاتورة الألم » عن فتاة صغيرة اسمها «ابتسام» شاءتْ لها أقدارها أن تسقط فى مدينتها « إيتاى البارود » تحت عجلات القطار فتفقد ساقًا وذراعًا كاملتين وكفَّ الذراع الأخرى ، ومع ذلك فهى راضية بأقدارها ولا تكف عن الابتسام فى وجوه أطبائها وزُوَّارِها .. حتى تأثر بقوة إيمانها طبيب شاب بالمستشفى فكتب إلَىَّ عنها ،ونشرتُ رسالتَهُ ودعوتُ أهل الفضل من

القراء لمساندتها بكلماتهم الطيبة ، وإلى زيارتها أيضًا لمن استطاع إلى ذلك سبيلا .. فانهالتْ عليها الرسائل من داخل وخارج مصر ، وزارها عشرات من الفتيات والشبان والسيدات الفُضْلَيات من القاهرة والإسكندرية والمدن القريبة من مستشفاها . وكان من بين مَن قرأوا رسالتها هذا الأب الذى يستعد لدخول غرفة الجراحة ، فنذر لربّه نذرًا إن مَنَّ الله عليه بالشفاء أن يزور هذه الفتاة الصابرة وهو فى طريق عودته من الإسكندرية إلى مدينة المحلة الكبرى.

وأجرى الجراحة .. وكَللهَا الله بالنجاح .. فأوفى بنذره وأَصَرَّ على زيارة تلك الفتاة رغم معارضة زوجته وذويه لذلك حتى لا يطيل على نفسه مشقة السفر وهو الذى يسافر فى عربة إسعاف راقدًا على ظهره ، لكنه زار « ابتسام » فعلًا فى المستشفى وقدم لها بعض الهدايا، وأُعْجِبَ كثيرًا بإيمانها وتفاؤلها بالحياة والمستقبل رغم ما أصابها .. وغادرها مستريحًا نفسيًّا وراضيًا عما فعل .

لكنه ما أن وصل إلى بيته فى مدينة المحلة الكبرى حتى صُدِمَ صدمة مروعةً بأن ابنه الشاب – الذى لم يره منذ ثلاثة أسابيع ، وكان صحيح الجسم وفى تمام العافية – يرقد فى البيت مبتور الساق ! ويعرف الأب المذهول أن ابنه الشاب قد أراد السفر إليه بالإسكندرية

لزيارته فى المستشفى ، فإذا به يسقط تحت عجلات القطار ويتم بتر ساقه ، وقد أَخْفَتْ عنه الأسرة هذا الخبر المؤلم حتى لا تتأثر به صحته وهو مُقدم على الجراحةالخطيرة ، وكان مُبَرِّرُها لعدم زيارة ابنه له هو انشغاله بالاستعداد للامتحان .

ويتجاوز الأب آلامه وأحزانه ، « ويفهم » - كما كتب لى فى رسالته - لماذا دعاه هاتف من السماء لأن يزور تلك الفتاة مبتورة الساق والذراع والكف ويُعجب بقوة إيمانها وتفاؤلها بالحياة ، ويدرك أن الله سبحانه وتعالى قد هداه إلى أن يقوم بهذه الزيارة كأنما يمهده نفسيًا لمواجهة الصدمة المؤلمة التى تنتظره فى بيته ، وليرى أن ابنه الشاب رغم ما أصابه فهو أفضل حالًا من هذه الفتاة .. ويتخيل ماذا كان يمكن أن يصيبه من انهيارٍ لو لم يكن قد زار هذه الفتاة وتحدَّث إليها ، ورأى ابتسامتها المشرقة وثقتها بربها ونفسها ، فيخجل من نفسه إنْ هو انهار أمام ما أصاب ابنه الشاب من تصاريف القدر .. ويعتصم بالصبر والرضا على كل ما حَمَلَتْهُ له ولأسرته أمواج الحياة .

أو أتذكر قصة ذلك الشاب الذى اتصل بزوجِ سيدةٍ شابةٍ كانت مريضة بالفشل الكلوى وتحتاج مَن يتبرع لها لكلية لإجراء عملية زرع لها ، وكنت قد نشرتُ قصتها فى رسالة مؤلمة لزوجها الشاب بعد

أن ثبتَ عدم توافق أنسجته وأنسجة كل أفراد أسرتها مع أنسجتها ، فأصبحتْ فى حاجة إلى متبرع بالكلية تتوافق أنسجتها معه .. فاتصل به هذا الشاب وعرض عليه التبرع بإحدى كليتيه لزوجته ، وخضع للتحليلات والفحوص اللازمة، فأثبتتْ توافق أنسجته مع أنسجة الزوجة إلى حَدٍّ مذهل .. وسأل الزوج ذلك الشاب عما يطلبه لقاء التبرع بكليته لزوجته ، فطلب منه مبلغًا زهيدًا وأقسم له أنه لو لم يكن يحتاج إلى هذا المبلغ « لضَرورةٍ قُصْوَىٰ » لما قَبِلَ أن يتقاضى منه أى ثمن مقابل تبرعه بكليته لزوجته التى تعاطف معها ومع زوجها المخلص .

وقدَّم إليه الزوج المبلغ البسيط الذى طلبه ، ودخل الشاب المستشفى ليقيم فيها شهرًا كاملًا ما بين إجراءِ الفحوص العديدة قَبْلَ الجراحة ، وبين فترة النقاهة بعد استئصال كليته وزرعها فى جسم الزوجة الشابة .. فما أن تمالك نفسه حتى غادر المستشفى واختفى عن كل مظانّه ، واحتاج إليه الزوج الشاب فى أمرٍ ما ، فبحث عنه طويلًا حتى عثر عليه بعدَ جهدٍ جَهيدٍ .. فهل تعرف أين عثر عليه ؟ .. فى مستشفى خاص يُجْرِى لنفسه جراحة تجميل لتصغير الأنف ، ويدفع للمستشفى وللجَرّاح الكبير كل ما تقاضاه من الزوج الشاب مقابل استئصال كليته راضيًا ، بعد أن حقق لنفسه حلمه القديم فى التخلص

من هذا الأنف الكبير الذى كان يثير سخرية الصغار منه فى طفولته !

وغريبة يا دنيا .. حقًّا وصدقًا !

أو أتذكر مثلًا حكاية الشاب الذى يَهْوَىٰ تقبيل أحذية السيدات والآنسات فى الشارع ، والذى يتقدم إلى سيدة أو فتاة لايعرفها فى الشارع ويسألها فى « أدب » عما إذا كانت تأذن له بأن يُقَبِّلَ حذاءها .. فإذا وافقتْ انحنى بهدوء وقَبَّلَ حذاءها بتلذُّذٍ غريب ، ثم نهض وشكر الفتاة أو السيدة وانصرف إلى حال سبيله .

وقد كتب إِلَيَّ رسالةً منذ عدة سنوات نَشَرْتُها فيما أذكر بعنوان «الحذاء » .. « يتعجب » فيها من ثورة السيدات والفتيات عليه حين يستأذنهن فى ذلك ، ومن غضب الأزواج والأشقاء الذين يعتدون عليه بالضرب حين يفعل ذلك .. ويناشدنى أن أكتب للسيدات والفتيات والأزواج أن يكونوا أكثر « تهذيبًا » ومرونةً معه من ذلك .. وقد نَصَحْتُهُ وقتها بعرض نفسه على الطبيب النفسى ليخلصه من هذا الانحراف النفسى الخطير المعروف باسم «الفتيشية» أو «الفتيشيزم» قبل أن يُعَرِّضَهُ للمهالك .

أو أتذكر قصة المهندس الشاب الذى كان يعيش مع زوجته وطفليه حياة مستقرةً هادئةً راضيًا بدخله ورزقه المحدود .. إلى أن

اشترى الفيلّا القديمة المجاورة لمسكنه ثريٌّ مُحدث ، فجدَّدَها وأنفق عليها الكثير ، ثم انتقل إليها بأسرته .. فإذا بالمهندس الشاب يرقب من شرفته حياةً مختلفةً تمامًا عن حياته البسيطة المتقشفة ، ويشهد كل يوم « مهرجانًا » مستمرًا للاحتفال بمناسبة « دائمة » لايعرف كُنهها .. تقام لها المآدب الحافلة كل يوم ، ويشارك فيها الزوار العديدون ، وتنقل إليها سيارات المطاعم الكبرى أكداس الطعام الفاخر ، وتأتى إليها الفرق الموسيقية لتشنف آذان الحاضرين بمعزوفاتها .. فيكاد يصيبه « الجنون » مما يُهدر كل يوم من مالٍ يزيد أضعافًا مضاعفةً عما يتقاضاه فى شهر كامل ، ويتسرب إليه الإحساس بالدونية .. وقد كان – كما قال لى فى رسالته – يظن نفسه من صفوة المجتمع المتعلمة ومن أبناء الطبقة المتوسطة ، فإذا به يكتشف أنه من الطبقات الدنيا فى المجتمع حين أُتيحت له فرصة المقارنة .. حتى لم يعد له من عمل بعد الظهر سوى الجلوس فى الشرفة ومراقبة هذا العالم الغريب عليه ، والرد على انتقادات زوجته واتهامها له « بالخيبة» لأنه لا يوفر لها بعض ما تراه من هذا المستوى الفاخر من المعيشة .

أو .. أو .. أو ..

ويبدو أن ضيقى بهذا السؤال المتكرر قد بلغ منى قمته حين سَألَتْنِى إياه منذ أيام مذيعة تليفزيونية .. فقلت لها فجأة وبلا

مقدمات : هل تعرفين أنه قد صدرتْ فى بريطانيا عام ١٨٩٨ رواية بعنوان « غرق السفينة تيتان » لمؤلف إنجليزى غير مشهور اسمه « مورجان روبرتسون » ، وكانت تروى قصةً خياليةً عن تعرض سفينة جبارة اسمها « تيتان» للغرق فى أول رحلة لها عبر المحيط الأطلنطى من ميناء « ساوث هامبتون » الإنجليزى إلى ميناء « نيويورك » وكانت السفينة الخيالية تحمل ٢٥٠٠ راكب ، فاصطدمت بجبل جليدى عائم ولم تكن تحمل من زوارق النجاة سوى ٢٤ قاربًا فقط لشدة الثقة فى متانتها واستحالة غرقها .. فأدى ذلك - فى الرواية - إلى غرق معظم ركابها . وأن هذه الرواية قد صدرتْ فلم يلتفتْ إليها أحد .. ثم بعد ١٤ عامًا فقط من صدور هذه الرواية غرقتْ فى الواقع - وليس فى الخيال - سفينةٌ عملاقةٌ اسمها « تيتانك » فى أول رحلة لها أيضًا بين بريطانيا وأمريكا لاصطدامها بجبل من الجليد بنفس الطريقة تقريبًا التى صَوَّرَتْها الرواية المجهولة، فغرق معظم ركابها وكانوا حوالى ٢٠٠٠ راكب لأنها لم تكن تحمل من زوارق النجاة سوى ٢٠ قاربًا فقط .. ثقةً أيضًا فى متانتها واستحالةغرقها !

ثم لاحظ بعض نُقَّاد الأدب التشابه الغريب بين اسم السفينة الغارقة فى الرواية وبين السفينة الغارقة فى الواقع ، وتقارب حمولة كلٍّ منهما .. إذ كانت حمولة السفينة الخيالية « تيتان » ٧٠ ألف طن ،

وحمولة السفينة الحقيقية « تيتانيك» ٦٦ ألف طن .. وأن كليهما لم تكن تحمل العدد الكافى من قوارب النجاة .. وأن قبطان السفينة – فى الرواية – كان يقول إن أية قوة فى الأرض لا تستطيع إغراق هذه السفينة ، كما قال صُنّاع « تيتانك » إن سفينتهم غير قابلة للغرق !

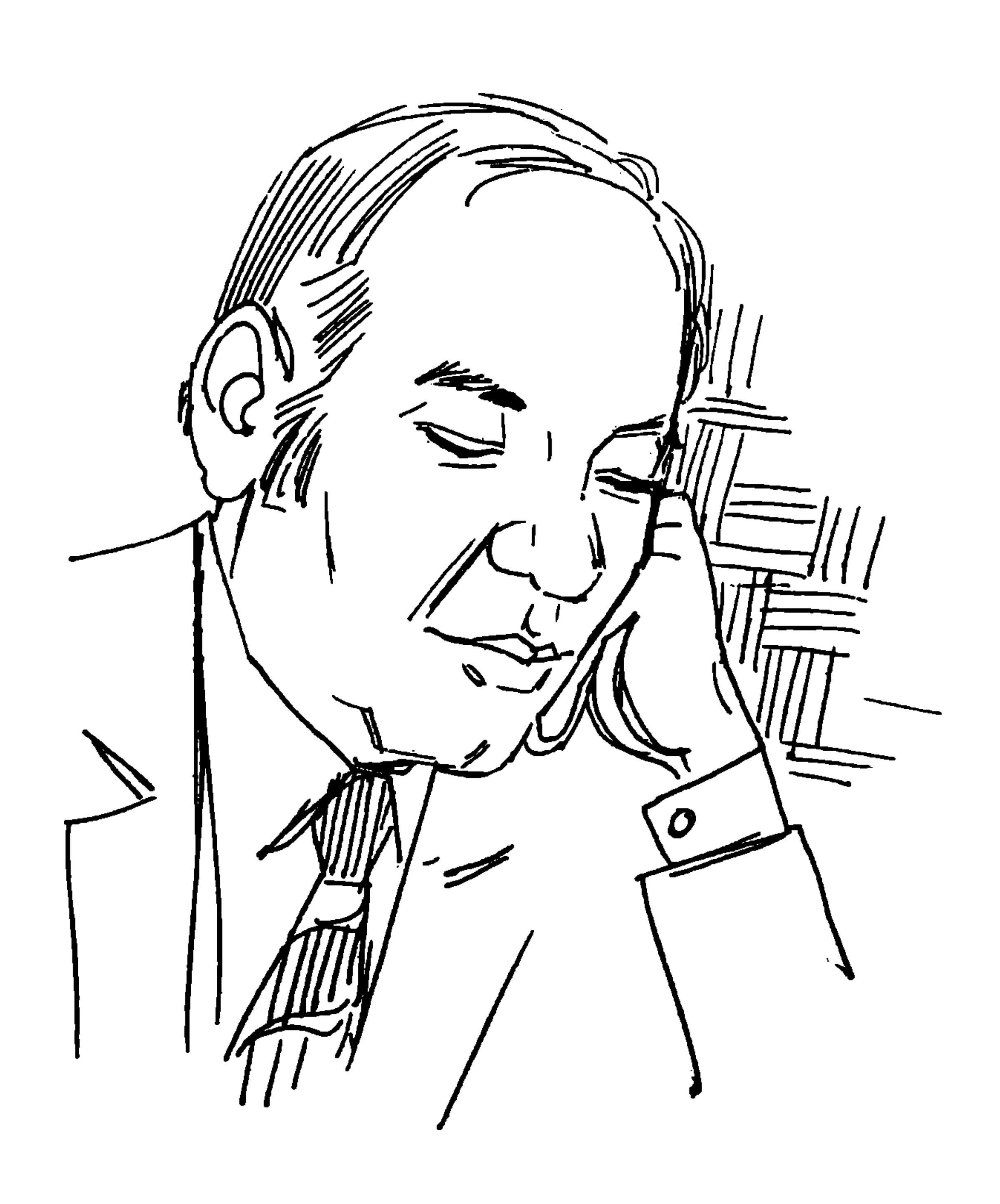
ولفتَ النقاد أنظار القُرّاء إلى هذا التشابه العجيب بين الواقع والخيال، فأقبلوا على قراءة الرواية المغمورة التى تنبأتْ بهذا الحدث ووَصَفَتْهُ قبل أن يقع بدقة غريبة ، فاصبحتْ من أشهر الروايات فى مطلع القرن الحالى !!

قلتُ ذلك كله للمذيعة واستمعتْ هى إليه بدهشة واهتمام .. ثم سَأَلَتْنِى فى حيرة : ولكن ما علاقة هذه القصة بمشاكل الناس فى بريد الجمعة ؟

فأجبتُها ضاحكًا ومعتذرًا : لا علاقة بينهما .. لكنى سئمتُ الإجابة على السؤال التقليدى ، وسئمتُ مراوغةَ الذاكرة لى كلما سُئلته .. فأردت التهرب منه بهذه القصة الحقيقية .. فهل ترينني نجحتُ فى ذلك؟

فأجابتنى بإصرار : أبدًا .. أجبْ من فضلك .. ما هو أغرب ...؟

وعدتُ مستسلمًا أحاول اعتصار ذاكرتى المجهدة لأتذكر المزيد والمزيد من غرائب الحياة .. وعجائبها .



## عفوا .. إننى « ألاحظك »

أعيش بين الناس أكثر مما أعيش مع نفسى .. وأعيش مع نفسى أكثر مما أعيش بين الناس ! فإذا أردتَ تفسيرًا لهذا « اللغز » قلتُ لك إننى آلف الناس ويألفوننى .. أجد نفسى فى صُحبتهم .. ولا أضيق بوحدتى إذا انفردتُ بأفكارى .. أسعد بوقتى إذا وجدتُ الصحبة الطيبة .. ولا أضيق به إذا وجدتُنى وحيدًا لفترة من الزمن ، ففى الكتاب الذى لا يفارقنى فى الحِلِّ والترحال أَلْقَىٰ بعض ما يشغل فراغى .. وفى شرودى بذهنى إلى عالم آخر أو زمن ماضٍ ما يخفف عنى وحدتى ، وحتى حين أكون بين الآخرين فإننى لا أكف عن القيام بأسفارٍ سعيدةٍ إلى أيامٍ جميلةٍ مضتْ من العمر .. أستعيدها فى ذهنى ، أسترجع فيها صور الأحباء الراحلين عنا بالغياب الأبدى أو بانقطاع الصلات وتباعد المكان أو الزمان ، و « أتحدث » إليهم وأسمع منهم ..

فأنا غالبًا الحاضر الغائب فى الجلسة ، أشارك الآخرين حديثهم واهتماماتهم بعض الوقت، وأشرد بذهنى بعيدًا عنهم فى أوقاتٍ أخرى، وأتراوح دائمًا بين الحضور والغياب .. فإذا كانت الجلسة مثيرة لاهتمامى فأنا الحاضر أكثر الوقت والغائب بعض الوقت ، أما إذا كانت لا تجذب اهتمامى أو لا تتفق مع أفكارى وشخصيتى وأُضْطَرُّ لشهودها للاعتبارات الاجتماعية أو العائلية ، فأنا الغائب أكثر الوقت ، والغارق فى أفكارى وأشجانى وحوارى الصامت مع نفسى .. وربما « شجارى» أيضًا معها .

وبسبب هذا الشرود كم عانيتُ من متاعب .. وكم واجهتُ من مواقف محرجة حاولتُ أن أتغلب عليها بأقل قدر ممكن من الحرج الاجتماعى ، كأننى أكرر فى ذلك محنة التلميذ الشارد خلال الدرس حين يلاحظ المدرس شروده ، فيفاجئه بسؤالٍ « غادر » عما كان يتحدث فيه ، فيسقط فى يده ويحار جوابًا !

ومن سوء حظى أن الظروف الاجتماعية والمهنية قد فرضت علىَّ أن أكون عضوًا فى أكثر من هيئة أو جمعية تعمل فى مجال الخدمة العامة ، فيا ويلى إذا فاجَأَتْنى نوبة الشرود والسرحان خلال حضورى إحدى جلسات هذه الجمعيات ، وفاجأنى أحد الحاضرين بطلب سماع رأيى فيما تجرى مناقشته من أمر لا أكاد أدرى عنه شيئًا !

وما أكثر ما تذكرتُ فى مثل هذه المناسبات ما رواه أستاذنا الراحل «توفيق الحكيم » – وقد كان يعيش مع أفكاره أكثر مما يعيش بين الناس – حين كان وكيلًا للنائب العام وحضر إحدى جلسات المحكمة ، ولم يلبث أن غاب بذهنه بعد قليل عن كل ما يجرى فيها ، إلى أن فوجىء بمفتشٍ قضائىٍّ يدخل عليه الجلسة ويجلس إلى جواره على المنصة ، وكان المحامى الذى يترافع فى القضية المعروضة –لسوء حظ الحكيم – « سفيهًا » على حد قوله ، فراح يكيل الهجوم للنيابة ويتهمها بالتخبط والارتجال وسوء التقدير ، فغضب المفتش القضائى وطلب من وكيل النائب العام أن ينهض ليرد على المحامى ويدافع عن كرامة النيابة ، وحار الحكيم كيف يرد وهو لايعرف موضوع القضية من الأصل ، فحاول أن يتظاهر بالحِلم وهو يلعن المحامى فى سره ويتمنى أن يُنهى مرافعته قبل أن يتأزم الموقف أكثر ، لكن هيهات أن يحدث ذلك .. فلقد راح المحامى يواصل هجومه على النيابة ، والمفتش يجذب وكيل النيابةمن كُمِّهِ بعصبية لينهض ويدافع عن كرامة النيابة .. ووكيل النيابة يتشبث بمقعده ، ويتلفتُ حوله طالبًا النجدة ومتمنيًا لو أشار المحامى عَرَضًا إلى موضوع القضية ليعرف عما يتكلم ، ورئيس المحكمة –الذى كان يعرف جيدًا عادات وكيل النيابة الفنان وشروده الدائم – ينظر إليه بإشفاق وإدراك لما يعانيه من الحرج .

وأخيرًا لم يجد وكيل النيابة بعد أن ازداد إلحاح المفتش عليه سوى أن ينهض ويقول أية كلمة والسلام ، فنهض على استحياء وقال : النيابة تحتج على هذه الكلمات التى وجهها الدفاع إليها !.. ثم جلس صامتًا .. فسارع القاضى الرحيم بنجدة صديقه الشاب ونظر إليه مبتسمًا ثم قال: إن المحكمة ترجو من النيابة أن يتسع صدرها لحرية الدفاع ، وأشار للمحامى كأنما يدعوه لأن يقول كلمة يُنهى بها الموقف ، فقال إنه لا يقصد أية إساءة للنيابة !

وتنفس وكيل النيابة الشاب الصُّعَداء ، ونظر إلى المفتش فى انتصار .. وانتهت الجلسة بسلام ، وإن كان المفتش قد فَطِن للموقف بعد ذلك وظل يتندر به سنواتٍ طويلة .

فإذا كان حظى لم يفاجئنى « بمفتش قضائى » يفضح شرودى وجهلى بما يدور الحديث فيه خلال بعض مثل هذه الجلسات ، فلقد واجهتُ موقفًا مشابهًا فى إحداها ، وكنتُ قد تابعتُ مناقشاتها الروتينية لبعض الوقت ، ثم استسلمتُ للشرود وقتًا لم أَدْرِ به على وجه التحديد، إلى أن فوجئتُ برئيس المجلس يوجه حديثه إلىَّ قائلًا:

– وما رأى الأستاذ فلان فى هذا الاقتراح ؟!

فإن كنتُ أملك فى ذلك الوقت أن أضحى بنصف عمرى لكى أعرف

ما هو هذا « الاقتراح » المطلوب رأيى فيه .. لما ترددتُ لحظة .

ولستُ أعرف هل وَشَىٰ ارتباكى واحمرار وجهى بحقيقة موقفى أم لم يحدث ذلك ؟.. لكنى وجدتُ رئيس المجلس على أية حال – وهو صديق قديم – ينظر إلىَّ فى فهم ، ثم يقول بلباقة إنه يطلب رأيى بالذات فى هذا الأمر لأنه يعرف لى موقفًا محددًا بشأنه ، ثم يعطينى طرف الخيط بلباقة مشيرًا إلى جوهر الاقتراح ، فأُبْدِى رأيى فيه وفقًا لاجتهادى وينتهى الموقف بعد شىء من العناء !

لكنى تعلمتُ من هذه التجربة درسًا هامًّا هو ألا أغيب بذهنى نهائيًّا عن « الموقف الراهن » ، وأن أتراوح دائمًا بين « الحضور والغياب» فى كل لحظة ، فلا أغيب عما يجرى حولى ، ولا أركز ذهنى وقتًا طويلًا فى الشكليات التى لا طائل من ورائها .

وبدلًا من الشرود الكامل بعيدًا عن المكان ، فلقد استفدتُ من هوايتى القديمة فى تأمل الأشياء والبشر وملاحظة تصرفاتهم ، فإذا شردتُ عما يجرى الحديث فيه لم يكن شرودى بعيدًا عن المكان الذى يجمعنى بالحاضرين ، بل عن بعض ما يقولون فقط مما لا يثير اهتمامى ، أما الأشخاص فإننى أتأملهم وأتأمل سلوكياتهم وطريقة تعبيرهم عن وجهات نظرهم وانفعالاتهم ، وتقفز إلى مخيلتى أحيانًا وبعضهم يتكلمون صورة هذه الشخصية العجيبة التى رسم معالمها

الأديب الروسى العظيم « أنطون تشيكوف » فى قصته القصيرة الجميلة «الخطيب » ، وهى شخصية « زابوكين » الذى قال عنه إنه كان موهوبًا فى ارتجال الخطب فى المناسبات المختلفة ، وبوسعه أن يخطب فى أى وقت حتى ولو كان قد استيقظ لِتَوِّه من النوم ، وأن خطبه فصيحة ، لكنها طويلة جدًّا إلى حد أنهم – خاصة فى أعراس التجار – كانوا يستعينون عليه بالشرطة لإيقافه عن الكلام !

فكثير من المتحدثين فى المجالس المختلفة ، أو حتى فى الزيارات واللقاءات العادية ، أشعر أنه « كزابوكين » هذا .. لامفر من الاستعانة عليه إلا بالشرطة لإيقافه عن الكلام لكى يدع للآخرين فرصة أن يتنفسوا أو يتكلموا إلى جواره .

وبعضهم أتأمل سلوكه وطريقة كلامه وتصرفاته باهتمام أكبر مما أسمع به كلامه أو أتفكر فيه .

وبعضهم أتذكر معه نصيحة الروائى الفرنسى « جوستاف فلوبير » لصديقه وتلميذه الأديب « جى . دى . موباسان » حين سأله : من أين يستمد أحداث وشخصيات قصصه ؟ فأجابه فلوبير : لاحظ .. ثم لاحظ .. ثم لاحظ !.. أى تأمل الأشخاص والأشياء والأحداث من حولك ، واهتم بمعرفة التفاصيل وما يجرى فى كل مناسبة لكى تستعين بما لاحظته على ابتكار شخصيات قصصك وأحداثها .

وبعضهم أشعر بالحسرة لأننى لم أتعرف بهم، ولم أسمع لهم وأستفد بهم من قبل ، وبعضهم أتمنى لو كانت الأقدار قد تَرَفَّقَتْ بى ولم تجمع بينى وبينهم ذات يوم ، ولم أدخل من الأصل فى دائرة تنفسهم .

وبعضهم يُذكِّرنى بما قاله الحكيم الصينى « كونفوشيوس » من أنك إذا وجدتَ شخصًا يستحق أن تتحدث معه ولم تفعل فقد فقدتَ رجلًا ثمينًا ، وإذا وجدتَ شخصًا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبتَهُ، فقد أضعتَ كلامك سُدًى ، والعاقل هو مَن لا يفقد الرجال ، ولا يضيِّع كلامه سدى !

وبعضهم يُذكِّرنى بكلمة « عمر بن الخطاب » الحكيمة : لولا ذكر الله .. ولولا إخوةٌ يُلْتَقَطُ منهم الحديث كما يُلْتَقَطُ أجود الثمر من الشجر لآثرتُ الموت على الحياة .

وبعضهم تعلمتُ من عيوبه أكثر مما تعلمتُ من محاسنه حين رأيتُ عمق كراهية الآخرين لهذه العيوب ، فحاولتُ أن أجتنبها وألاّ أكررها بعد أن لمستُ كم يضيق بها الآخرون .. وكم ضقتُ أنا مثلهم بها .

وبعضهم تعلمتُ من صمتهم أكثر مما تعلمتُ من كلامهم حين

رأيتُهُم يلتزمون الصمت عما لا يُحسنون الكلام فيه ، ولا يتكلمون إلا فيما يعرفون .

ولقد عمل الأديب الشاب موباسان بنصيحة أستاذه .. وحين مات فلوبير تذكّر موباسان نصيحته ، فانشغل بملاحظة ما يجرى خلال إعداد جثمانه وخلال إجراءات الوداع والجنازة ليستفيد بما لاحظه فى قصصه فيما بعد .

لكننى لا « ألاحظ » الأشخاص أو الأحداث بمثل هذا الدافع الفنى الحرفى ، وإنما بإحساس الرغبة فى فهم الأشياء والأشخاص .. فمشكلتنا الحقيقية فى التعامل الإنسانى هى سوء فهم الإنسان لكثيرٍ من تصرفات وأفعال الإنسان ، ونحن قد لا نفهم بعض هذه التصرفات والأفعال لأننا لم نبذل جهدًا كافيًا لفهمها ومعرفة دوافعها وتقدير ظروفها ، ولم « نلاحظ » جيدًا فى الوقت المناسب الأشخاص والأشياء ولم نربط بين أجزائها المتناثرة لنفهم الدوافع التى تحركها أو تحكمها .

فإذا رأيتَنى محملقًا فيك لفترة طويلة فلا تظن أننى أنكر عليك شيئًا أو غاضب من شىء فعلتَه ، وإنما أنا « ألاحظك » أولًا ، لكى أفهمك ثانيًا ، وأتجاوب مع أفكارك ثالثًا !

وإذا رأيتَنى شاردًا بذهنى بعيدًا عنك فلا تظن أننى أتجاهلك أو أتعمد الإساءة إليك ، فالحقيقة هى أننى أحاول أن أفهم أحداثًا وقعتْ

فى الماضى القريب أو البعيد ، وأستعيدها فى مخيلتى لأعرف ما فاتنى إدراكه فى وقتها ، وأستعين على فهمها الآن بخبرة السنين .. وقد تكون أنت نفسك محور هذه الأحداث الماضية أو طرفًا فيها ، وقد يكون غيرك من الأشخاص هم أبطالها .. فإذا غبتُ عنك وأنت تتحدث معى الآن، فأنا « معك » فى نفس الوقت ولكن فى فترة سابقة من العمر !

والحوار الباطنى مستمر فى داخلى فى كل الأحوال ، سواء كنت وحدى أو مع الآخرين ، وحديثى إليك وحديثك معى ليس فى النهاية سوى استراحة قصيرة من هذا الحوار المتصل .

وهذه الأسفار الكثيرة إلى الماضى القريب أو البعيد هى أسفار هامة وضرورية « لحسم » بعض المواقف التى ما زالت معلقة فى ذهن الإنسان ، أو لإغلاق بعض الملفات التى ما زالت مفتوحة رغم مرور الأيام .

ولا مهرب للإنسان مع أن يعيش هذه الحياة المزدوجة طوال الوقت، والأمل فقط هو ألا تطول ساعات حياة الإنسان مع نفسه عن الحد المأمون الذى يحتمله ، فيبدأ الشعور المؤلم بالوحدة والاغتراب النفسى عن المكان والزمان .

وفى كل الأوقات ، فإن زحام البشر حولَك أفضل كثيرًا من وحدتك دونهم ، حتى ولو كنتَ ترحل بذهنك بعيدًا عنهم بعض الوقت أو فى كثير من الأحيان !



# يـا حـبـيب الْمُـخّ

هل تذكر أغنية « ليلى مراد » القديمة : « يا طبيب القلب بقيت حبيب القلب » ؟

تُرَىٰ .. كيف يكون إحساسك بها حين تسمعها « مُعَدَّلَةً » على هذا النحو :

– يا طبيب القلب .. بقيت حبيب المخ !

مؤكد أنك سوف تنفر منها وتعتبرها نوعًا من الهذيان والسخف، فما بالك إذا عرفتَ أنها الحقيقة العلمية ، التى يكون « الخيال » أجمل منها فى بعض الأحيان ؟ وما بالك أيضًا إذا عرفتَ أننا نحب « بالمخ » وليس بالقلب ، على عكس الفكرة الرومانسية الشائعة !

لقد سألوا جَرّاحًا عالميًّا للقلب منذ سنوات : ماذا يجد داخله حين

يفتحه ؟ فأجابهم بأنه لا يجد فيه شيئًا سوى الدم والحجرات القلبية، وأن قلوب الناس كلهم متشابهة لا فرق فيها بين قلب الرجل وقلب المرأة ، وأن القلب عضو عادى من أعضاء الجسم كالكبد والكلى ، لكنه يختلف عنها فى أنه أقوى عضلة فى جسم الإنسان لأنها تعمل ٢٤ ساعةً متصلةً كل يوم ، كما أنه أكثر الأعضاء حساسية لأنه العضو الداخلى الوحيد فى جسم الإنسان الذى نحس به وبدقاته كل لحظة ، وتنعكس عليه أكثر من غيره انفعالاتنا ومشاعرنا بالرغم من أنه ليس مركز الانفعالات ، وإنما « المحطة » التى تتم فيها ترجمة هذه الانفعالات ، فيدق القلب ويضطرب عند مواجهةِ انفعالٍ معين كرؤية الحبيب ، أو دخول الامتحان ، وتنتظم دقاته ويسترخى فى الأحوال العادية .

وتفسير ذلك أنه عند حدوث الانفعال يُصْدِرُ المخ أوامره بإفراز كمية كبيرة من « الأدرينالين » الذى يؤدى إلى تغيرات عديدة بالجسم من أهمها زيادة سرعة القلب ، وهو أسرع تغيير نحس نحن به ، فى حين تُجْرَىٰ باقى التغيرات فى الداخل ببطء أكثر.

ولا غرابة فى ذلك ، لأن مراكز الانفعال موجودة بالمخ وليس فى القلب ، وهى تتصل بالجهاز العصبى اللاإرادى فى جسم الإنسان .. وحين نواجه موقفًا يثير الانفعال فإنها تنفعل به ، ويؤدى ذلك إلى

تنبيه الجهاز العصبى اللاإرادى وتحدث استجابات الجسم لهذه الانفعالات ، فتزداد سرعة ضربات القلب ويحدث الخفقان ، وتزداد كمية الدم التى يضخها القلب أو تقل حسب نوع الانفعال .

وبسبب خفقان القلب واضطرابه عند الانفعال اعتقد الإنسان منذ قديم الزمان أنه يحب ويكره بقلبه وليس بعقله ، مع أنه فى الحقيقة يحب « بمخه » ويكره به أيضًا ، وأن جسمه يدفع ثمن انفعالاته المختلفة وليس القلب وحده هو الذى يستجيب لهذه الانفعالات.

فهذا الجهاز العصبى اللاإرادى يؤثر أيضًا على حركة المعدة والأمعاء ، فيزداد انقباض عضلات المعدة مع شدة الانفعال ، وهذا هو سر آلام المعدة وتقلصاتها التى يشعر بها البعض فى حالة الغضب أو الحزن الشديد ، وتزداد نسبة الحامض الذى تفرزه المعدة ويضطرب الهضم ، فيحدث الألم بالتالى .. وقد يستمر التوتر فينهش هذا الحامض جدار المعدة ويُحدث بها قرحة ، وقد ينهش أيضًا الاثنى عشر ويُحدث بها قرحة أخرى .

كما يتحكم هذا الجهاز العصبى أيضًا فى سرعة التنفس وفى انقباض أو ارتخاء الأوردة والشرايين ، مما يؤدى إلى ارتفاع الضغط أو انخفاضه، بل إنه يتحكم كذلك فى نشاط غدد الجلد وأوعيته الدموية فيحدث احمرار الوجه عند الخجل ، ويشحب الوجه عند

الخوف ، وينتصب شعر الإنسان عند الفزع بسبب انقباض عضلات جذور الشعر .. لكن أسرع هذه الاستجابات وأوضحها للإنسان هو خفقان القلب واضطراب دقاته ، لهذا فقد اتهم قلبه دائمًا بأنه المسئول عن انفعال الحب، وراح يَتَشَكَّىٰ منه ومما يفعله بالإنسان .. فمنذ عصر المعلقات السبع فى الجاهلية والشعراء يتهمون قلوبهم ويَتَشَكَّوْنَ مما أوردتْهم إليه من موارد الحب والعذاب .

وفى مطلع المعلقة السادسة لـ « علقمة بن عبدة بن النعمان بن القيس» يتشكّى الشاعر من قلبه الذى لا يقتنع بعامل السن والمشيب وما زال يهفو إلى الحسان ، فيقول :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِى الْحِسانِ طَرْوبُ

بُعَيْدَ الشَّبـابِ عصرَ حـانَ مَغِيبُ

« وطحا » معناها فى المعاجم : بَعُدَ أو طَوَّحَ فى كل ناحية ، أى أن قلب الشاعر ما زال يُطَوِّحُ به فى كل اتجاه جريًا وراء الحسان بغير اعتبار لشيخوخته .

وفى الآداب الغربية نجد نفس الشىء أيضًا منذ قديم الزمان وحتى الآن، فالشعراء والأدباء يتحدثون عن قلوبهم وليس عن « أمخاخهم » حين يكتبون عن الحب والمشاعر العاطفية والإنسانية ، ويعاتبون

«القلب » حين يعانون عذاب الغدر ، ويمدحونه حين ينعمون بسعادة الحب .. فإذا كانت الحقيقة العلمية تؤكد لنا أن المخ هو مركز العواطف والانفعالات وليس القلب ، فكيف نفسر إذن بعض حالات الحب والكره التى تستعصى على أى تفسير عقلانى أو منطقى ولا نجد - فى نهاية المطاف - ما نفسرها به سوى أنه « القلب » الذى لا يخضع أحيانًا لأحكام العقل!

وكيف نفسر - مثلًا - غرام « جوتة » شاعر الألمان الأعظم وهو فى الواحدة والثمانين من عمره بفتاة عمرها ١٨ عامًا وعِشقها هى له ، وقد أصيب بالالتهاب الرئوى بعد أن عرفها بعام فمات فى الثانية والثمانين ، وبَكَتْهُ هى بالدمع السخين وأعلنت الحداد لوفاته لفترة طويلة من بعده.

هل يسعفنا « المخ » حقًّا بتفسيرٍ مقبولٍ لهذه العلاقة العاطفية الفردية؟

وهل يسعفنا أيضًا بتفسيرٍ آخر لقصة الفتاة « فردريك بريون » ابنة الأستاذ الذى عَلَّم « جوتة » الرقص فى مدينة « ستراسبورج » فالتقى بها بالصدفة خلال نزهة فى غابات « سانسايم » ، وكانت هى فى السادسة عشرة من عمرها زهرةً تتفتح للحب لأول مرة ، وكان هو

فى العشرينيات من عمره .. فأحبها على الفور وأحبته بجنون ، حتى صرختْ فيه مرةً هاتفةً من أعماق قلبها : ملعونةٌ هى المرأة التى تقبلها من بعدى !

وكانت تتعذب بالغيرة عليه من شقيقتها التى تزاحمها فى حبه ، وكتب عنها « جوتة » إحدى روائعه الشعرية بعنوان « لقاء .. ووداع»، ثم فرقت الأيام بينه وبينها ، فاحتفظتْ له دائمًا بأعمق مشاعر الوفاء، وطلب يدها كثيرون من بعده فرفضتهم جميعًا قائلة :

– إنَّ مَن أحبها « جوتة » .. لن تكون لأحد من بعده !

وعاشتْ بعد ذلك سنين طويلة لدى شقيقتها بلا زواج ، حتى قرأت الفصل الذى خَصَّها به « جوتة » فى كتابه « شعر وحقيقة » .. ورحلتْ عن الحياة مطمئنةً إلى مكانتها فى قلب معبودها العظيم .

وجاء شاعر نمساوى هو « لودينج إيكارت » فحفر على شاهد قبرها بغابات « سانسايم » هذا البيت من أشعاره :

– شعاع من شمس الشاعر هبط إليها فمنحها الخلود !

بل كيف نفسر قصص الغرام المشبوب التى يضطرب معها «العقل» نفسه كما حدث لطيِّب الذكر « قيس بن المُلَوَّحِ » .. وقد سُئِلَ « الأصمعى » عن جنونه فقال : لم يكن مجنونًا ، وإنما كانت به لوثة أحدثها العشق فيه .

لقد تَرَفَّقَ به أبوه حين ابْتُلِىَ بحب ليلى ، فذهب مع إخوته وبنى عمه وأهل بيته إلى أبى ليلى يسألونه بحق صلة الرحم والقرابة أن يزوجها منه ، فأَبَىٰ قائلًا : واللهِ لا حَدَّثَتِ العرب أنى زَوَّجْتُ عاشقًا مجنونًا .. فنصح الناس أبا قيس أن يخرج به إلى مكة ويُعَوِّذَهُ بيت الله الحرام لعل الله يشفيه مما ابْتُلِىَ به ، ففعل .. ورافقه إلى مكة ودخلا إلى البيت الحرام ، فقال لابنه المعذَّب : تعلق بأستار الكعبة وقل اللهم أرحنى من ليلى وحبها، فتعلق بأستار الكعبة كما طلب منه أبوه لكنه قال :

- اللهم مُنَّ عَلَىَّ بليلى وقُربها !

فضربه أبوه ، فأنشده قيس أبياتًا توجع « القلب » ( لاحظ الخطأ العلمى ) عن عذابه الذى لا حيلة له فيه ، ومنها :

وكَمْ قائِلٍ قَدْ قال : تُبْ .. فَعَصيتُهُ

وتِلْكَ لَعَمْرِى حُلَّـةٌ لا أُصِيبُهـا

فيا نفسُ صبرًا لستُ واللهِ فاعْلَمِى

بأوَّلِ نَفْسٍ غـابَ عنهـا حبِيبُهـا

ورَقَّ قلب الأب لابنـه ، وأخذ بيده نحو جبل « منَىٰ » لرمى الجمار، فبينما هما سائران إذ سمـع قيس مناديًا ينـادى مـن بعض الخيـام :

يا ليلى!.. فَخَرَّ مَغْشِيًّا عليه ، وأفاق مُصْفَرَّ الوجه فوجد أهله يحيطون به فى إشفاق، فأنشد :

دَعـا باسْمِ لَيْلَىٰ غَيْرُهـا فَكَأَنَّـمـا
أَطارَ بِلُبِّى طائـرٌ كانَ فِى صَدْرِى

عَرَضْتُ عَلَىٰ قَلْبِى الْعَزاءَ فقالَ لِى
مِنَ الآنَ فاجْزَعْ لا تَمَلّ مِنَ الصَّبْرِ

ناهِيكَ عن « شهيدىْ الغرام » فى « روميو وجولييت» التى صاغها شاعر الإنجليزية « شكسبير » عن قصة حقيقية جرتْ فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، وغيرها الكثير من قصص الحب والغرام التى لا مكان للعقل فيها .. فهل يسعفنا « المخ » حقًّا بتفسيرٍ مقبولٍ لمثل هذه القصص التى تتعارض - أصلًا - مع أحكام العقل ؟.. بل هل يسعفنا أيضًا بتفسيرٍ مقبولٍ لبعض قصص الكراهية غير المفهومة فى العلاقات الإنسانية ، وقد يقع بعضها لغير سبب منطقى معقول ؟

لقد كنا نحيل كل ما نعجز عن تفسيره تفسيرًا منطقيًّا من شئون العاطفة والعلاقات الإنسانية إلى « القلب » الذى لا يتقيد فى كثيرٍ من الأحيان بالمنطق العقلى ، وما زلنا نقول حتى الآن إن الإيمان هو

التصديق بالقلب ، وإن المؤمن يُصَدِّقُ بقلبه أولًا .. ثم يفتش فى عقله عن أسانيدَ منطقية لما آمن به .

ونقول إن « قلوبنا » قد اطمأنتْ لإنسانٍ نراه لأول مرة وشعرنا بالارتياح إليه من الوهلة الأولى ، مع أنه لم يفعل أى شىء يبرر لنا الاطمئنان إليه .. وقد نشعر بالنفور منه والضيق به مع أنه لم يفعل - أيضًا - أى شىء يُنَفِّرُنا منه .

أذكر أننى سألتُ - ذات مرة - فتاة فى العشرين من عمرها لا يتجاوز تعليمها المرحلة المتوسطة : لماذا نفرتْ من شاب تقدم إليها حين رأتْهُ لأول مرة ، ولم تقبل به أو تعطه أية فرصة للاختبار بالرغم من أن ظروفه مثالية بالنسبة لها وهى شديدة اللهفة على الارتباط والزواج ؟ فأجابتنى إجابة لم أنسها حين قالت : مهما أجْهَدْتَ نفسك فلن تعرف أبدًا لماذا استرحتَ لإنسانٍ تراه لأول مرة ، أو لماذا نفرتَ منه ؟

وما قالتْهُ صحيح ، ويحيلنا مرة أخرى إلى القلب ، وإلى مسألة تآلف الأرواح وتنافرها التى أشار إليها الحديث الشريف : « الأرواح جنود مُجَنَّدَةٌ .. ما تآلف منها ائْتَلَف ، وما تنافر منها اختلف » ، وهى المسألة نفسها التى تعبر عنها الفتاة أو السيدة الآن بلغة عصرية حين

تقول لك عن زوجٍ وخطيبٍ لم تتآلف معه : إنها اكتشفتْ أنهما لا يتراسلان على موجة لاسلكية واحدة ، وأن كلًّا منهما يتراسل على موجة منفصلة لا تصل إلى الآخر !

فأين « المخ » من كل ذلك ؟

وما دور « القلب » فيما نعجز عن تفسيره من شئون النفس والهوى والعاطفة ، وهو كما علمنا لا شأن له إلا بِضَخٍّ الدم فى شرايين الجسم ؟

لا تفسير إذن سوى أننا نُعَبِّرُ به تعبيرًا مجازيًّا عن مركز الانفعالات والأحاسيس فى المخ ، وأن « كيوبيد » حين يوجه سهامه إلى المحبين فإنه يرشقها فى هذا المركز من المخ ، وليس فى القلب الذى لا يحتوى إلا على الدم والحجرات القلبية .

ومن حسن الحظ أننا نفعل ذلك ، ونرسم القلوب فى أوراقنا ورسائلنا الغرامية حين نحب حتى ولو كان ذلك خطأً علميًّا ، إذ تخيل معى مُحِبًّا يكتب إلى حبيبته رسالة حب ملتهبة ، فيزينها برسمٍ للمخ وتجاويفه وتلافيفه المُنَفِّرَةِ ، وكلها أبعد ما تكون عن الرومانسية والخيال الجميل !

نعم .. نحن نحب « بمخنا » ، ونكره ونحنُّ إلى مَن غابوا عنا

أو فارقونا به .. ونشعر بالحنين إلى أيام البراءة والشباب والعمر الجميل بهذا المخ الذى يختزن فى تلافيفه ذكرياتنا القديمة ومشاعرنا وانفعالاتنا وكل شئون النفس والوجدان .. لكنَّ كل ذلك لن يغير أبدًا من احترامنا « للقلب » ومكانته العاطفية عندنا ، ولن يأتى يوم - مهما فعل العلماء - يغنى فيه عاشق مع « أم كلثوم » فيقول :

- افرح يا « مخّى » لك نصيب

تنـــول مُنــاك وَيَّــا الحبيب !!



# امْـرَأَةٌ .. عَلَـى الـمَعاشِ

كتبت إلىّ من إحدى مدن الإمارات تعلق على مقال لى بعنوان « شتاء الأحزان » وتروى لى قصتها .. فقالت :

« ترددت فى أن أكتب لك هذه الرسالة لأبثك فيها ما أعانيه من الوحدة والغربة والألم والخوف .. فلقد قلت فى « مفكرتك الزرقاء » .. إن كل إنسان وحيد يعيش شتاء أحزانه ولو كان فى شرخ الشباب ، فكيف يكون الحال إذن مع امرأة مطلقة جاوزت الخمسين وبلا أهل ولا أولاد تحتمى بدفء مشاعرهم من برد الشتاء ؟

لقد تم طلاقى من زوجى منذ حوالى عام بعد أن عشت معه سنوات عديدة بغير أن أنجب منه أطفالا ، ولم أكن المسئولة عن عدم الإنجاب فقد كنت الزوجة الثالثة له وكلنا لم ننجب منه ، وحين تزوجته كنت شديدة اللهفة على أن أنجب منه طفلا يحقق له أمنيته ونسعد به معا ،

لكن السنوات مضت بغير أن تلوح بادرة أمل فى الإنجاب .. فحاولت اصطحابه إلى أحد الأطباء المختصين ليعرض نفسه عليه، فرفض ذلك بشدة ، وأشعرنى أنى قد جرحت بهذا الاقتراح كبرياءه، فندمت على محاولتى وقررت ألا أفاتحه فى الأمر مرة أخرى، وكتمت مشاعرى وانطويت على رغبتى الصامتة فى الإنجاب ورضيت بما اختاره الله لى، وكرست جهدى لرعاية زوجى.. وأحببته حبا فوق كل خيال ، وحاولت أن أكون له الزوجة والأم والأبناء والأهل .. فمضت سنوات حياتنا هادئة بلا مشاكل إلى أن حدث شىء كنت أظن أنه مألوف فى حياة كل امرأة ولا يغير فى حياتها مع زوجها شيئا .. فقد بلغت يا سيدى سن اليأس ولم يعد هناك أى أمل فى أن أنجب .. وتصورت أن ذلك سوف يعمق من روابطى بزوجى ويمحو آخر سبب لاستشعاره للنقص بعد أن أصبحت مثله غير قادرة على الإنجاب كما كان هو دائما ،بدليل أنه لم ينجب من زوجتيه السابقتين ومنى .. لكن ما حدث فاق كل توقعاتى .. فلقد انقلبت حياتى معه بعد انقطاع الدورة الشهرية عنى رأسا على عقب ، وبعد فترة قصيرة من الاضطراب قرر أن ينهى حياته معى ، فطلقنى وتركنى وحيدة فى الغربة بلا أهل ولا أبناء ولا شباب ولا أى شىء سوى صبرى وإيمانى بالله عز وجل وتسليمى بقضائه وقدره .. وأنا الآن يا سيدى أعيش أيامى فى وحدة قاسية أتجرع مرارتها كل ساعة وكل لحظة ، فأعمل فى محلى الذى أديره بنفسى ، ثم

أصعد إلى مسكنى فى نفس البناية فتحاصرنى الوحدة والضيق وأشباح الذكريات منذ اللحظة التى أدخله فيها حتى أغادره .. وقد تغير إحساسى به بعد طلاقى مع أنه مرتب هادىء ومريح .. لكنه لم يعد نفس البيت الذى كنت أحبه من قبل ، فكل شىء فيه يذكرنى بما كنته فى أيام السعادة والزواج والتفتح للحياة، وبما أصبحت عليه الآن فى أيام الوحدة والعزلة وانقطاع الرجاء، ولم أستطع بكل أسف أن أغير مسكنى لقربه من عملى .. وبقيت فيه وكل ركن من أركانه يذكرنى بحالى ..

والغريب أنى أبدو رغم تجاوزى الخمسين أصغر من سنى بكثير ، حتى لقد كان كثيرون يشفقون على من زواجى بزوجى الذى كان يكبرنى فى السن ، كما أنى لازلت محتفظة بمظهرى مما يدفع كثيرين لإبداء رغبتهم فى الزواج منى، لكنهم جميعا للأسف أصغر منى .. ولم أستطع مصارحة أحدهم بالحقيقة المرة وهى أننى أكبر منه ، كما لم أستطع قبول أحدهم رغم حاجتى لمن يخفف عنى وحدتى ، ثم زاد حرجى حين فكرت إحدى معارفى أن تزوجنى من أحد أقارب زوجها .. ثم ترددت فى ذلك لاعتقادها أنه يكبرنى بكثير ولأن له ابنتين فى المرحلة الإعدادية ولأنه يرغب فى أن يتزوج من امراة تتحمل مسئولية تربيتهما، ولم أستطع أن أصارحه بحقيقة أمرى .. وبأنى ربما كنت أكبر منه سنا أو بأنى أتوق إلى أن أربى هاتين الابنتين لأعوض بهما حرمانى من الأطفال وأشبع فيهما أمومتى المكتومة، فضاعت هذه الفرصة كما ضاع غيرها من فرص الحياة .. وبقيت وحدى أواجه أيام

الجفاف والخواء .. ولا شيء فى حياتى سوى الوحدة والأحزان واجترار الذكريات ».

هذه هى الرسالة التى تلقيتها من قارئة مقيمة بإحدى مدن الإمارات.. فرأيت فيها صورة جديدة لما يسميه البعض خطأ مشكلة سن اليأس ، والأصح هو أن نسميه « أزمة منتصف العمر » ..

فالبعض ـ رجالا ونساء بكل أسف ـ يتصورون أن بلوغ المرأة سن التوقف عن الإنجاب هو قرار بإحالتها إلى المعاش .. بل إن بعض السيدات يتعاملن نفسيا مع هذه السن بهذا الفهم الخاطىء فيتصورن أن دورهن فى الحياة قد آذن بالانتهاء لمجرد حدوث بعض التغيرات البيولوجية التى تنهى عندهن القدرة على الحمل والإنجاب ..

وليس هناك أظلم للمرأة وللرجل أيضا من هذا الوهم الخاطىء ، ولقد اهتم علماء النفس بمحاولة تفسير أسبابه فتوصلوا إلى أن الرجل عندما يبلغ المرحلة التى تتراوح بين ٤٥ و ٥٠ عاما من عمره يبدأ فى الإحساس بأن السنوات المتبقية من عمره أقل من تلك التى عاشها، ويزداد هذا الشعور عنده كلما توالت عليه أسماء الراحلين من زملائه وأصدقائه .. فيستشعر الوحشة التى يحسها المسافر فى سيارة عامة حين يتوالى نزول الركاب منها فى محطة بعد محطة فلا يبقى فيها سوى قلة اقترب موعد نزولهم وساد المكان ظل كئيب بعد أن كان يضج بالحياة والصخب والمرح فى بداية الرحلة !

وكرد فعل طبيعى لهذا الإحساس المؤلم يصبح الزوج عصبيا قلقا ، وقد يحاول أن يهرب منه بالتغيب عن البيت كثيرا مدعيا الانشغال فى العمل، وقد يتورط فى بعض الحالات فى مغامرة عاطفية يحاول أن يثبت بها لنفسه أنه مازال نفس الرجل الذى كان، كما قد تظهر عليه بعض مظاهر الاهتمام بالنفس .. والرغبة فى الاستزادة من الحنان والعطف والتدليل من جانب زوجته .. أما المرأة فنتيجة للتغيرات الهرمونية التى تتعرض لها فإنها تصاب بتذبذب فى العاطفة وبالحساسية الشديدة والتوتر والقلق ، وتهاجمها نوبات من البكاء والحزن وقلة النوم، وربما تتعرض لبعض الأعراض الجسمية كسرعة ضربات القلب والدوخة وآلام الصدر ، إلى جانب إحساسها الخاطىء بنهاية حياتها من ناحية الخصوبة والقدرة على الإنجاب ، كما تعانى غالبا من عدم الاطمئنان الذى يساورها بالنسبة لزوجها والميل للشك فى علاقاته ..

والناس دائما أعداء ما جهلوا، فلو أننا عرفنا طبيعة كل مرحلة من مراحل العمر واستعددنا لها بالفهم الصحيح لتجنبنا الكثير من المعاناة، ولساعدنا أنفسنا على تفادى أشواكها ، ولاستطعنا الاستمتاع بما لكل مرحلة من جمال ..

وعلماء النفس الذين يكرهون تسمية هذه المرحلة التى تشهد بعض التحويلات البيولوجية عند المرأة بسن اليأس ، يفضلون تسميتها بأزمة منتصف العمر ، ويشركون فيها المرأة والرجل معا ، وإن كانت

أعراضها بالنسبة للرجل تتزايد بعد بلوغه الستين . والأزمة إنما تعنى التحدى الذى لابد للإنسان أن يواجهه وأن يصمد له ويجتازه .

وكثير من حوادث الانفصال التى تحدث فى هذه السن تقع بسبب سوء فهم الزوج لأسباب التوترات النفسية التى تعانيها زوجته فى هذه المرحلة، والتى تتطلب أن يكون أكثر فهما لها وأكثر حكمة فى التعامل معها .. فبدلا من الاستجابة لهذه التوترات بتوتر أشد ، ينبغى أن يقترب منها أكثر وأن يتسامح مع توتراتها ، وأن يشعرها بأنها مازالت الملكة التى كانت قبل هذه الأزمة .. لأنه إذا تحالفت عوامل العصبية التى تنتابها مع سوء فهم الزوج لطبيعة الأزمة تحطمت روابط الأسرة على صخرة الشقاق والخلاف ..

وأتصور يا سيدتى أن ذلك كان أحد أسباب إقدام زوجك على هدم روابطه معك .. كما أتصور أيضا أن ميل الإنسان الغريزى لعدم الاعتراف بأى نقص فيه كان سببا أساسيا آخر لمبادرته بهذا الطلاق لكى يثبت لنفسه وللآخرين أنه القادر على الإنجاب، لكن زوجته هى التى لم تعد قادرة عليه .. مكررا بذلك أسوأ ما فى النفس البشرية من رغبة خفية فى اتهام الآخرين بما يخشى الاعتراف به فى مواجهة الغير، مع أن القدرة على الإنجاب ليست وساما من حق أحد يفتخر به ، وإلا لكانت الثيران أحق بالفخر من الإنسان تماما كما أن الحرمان من القدرة على الإنجاب ليس قصورا يحسب على أى إنسان .. لأنها أولا وأخيرا أقدار لا فضل فيها لأحد ولا ذنب ..

ولقد كان ما كان ولم يعد يجدى الآن أن نعرف من المخطىء أو المصيب .. وإنما المهم أن نتوافق مع أقدارنا وأن نسعى إلى تغيير ما نستطيع تغييره من ظروفنا غير الملائمة .. وأن نهيىء أنفسنا لقبول ما لا نستطيع تغييره منها ، وأن نسأل الله دائما أن يهبنا الحكمة لكى نفرق بين ما نستطيع وما لا نستطيع تغييره لكيلا نتعذب بنطح الصخر والسير وراء السراب ..

وفى ظروفك فإنك لا تستطيعين تغيير حقيقة أنك قد بلغت مرحلة منتصف العمر ، وهى بداية الحياة الحقيقية للرجال والنساء فى المجتمعات المتحضرة حيث يكون كل منهما قد اكتسب خبرات ثمينة فى فهم الطرف الآخر وقدرة أكبر على الاستمتاع بالحياة بما توفر لهما من إمكانات مادية خلال كفاح السنين ، وبما توافر لهما من علاقات اجتماعية واسعة وفهم أفضل لحقائق الحياة واستعداد أكبر للتجاوز عن التفاهات التى كانت تفسد عليهما أيامهما فى الماضى ، كأنما يقولان مع الفيلسوف الذى قال : « هيا ننهض أيها الإخوان .. فقد طال جلوسنا فوق التوافه ! » ..

وفى رواية « رجل الأقدار» للأديب والمفكر الفرنسى « أندريه مالرو» يقول أحد أبطالها : « إن تسعة أشهر ليست كافية لصنع إنسان ، وإنما يحتاج الأمر إلى خمسين عاما من العناء والتضحيات والإرادة وأشياء أخرى حتى يكتمل صنعه ويصبح إنسانا ليس فيه شىء من آثار الطفولة والمراهقة»..

وهذا صحيح تماما، فبلوغ الإنسان سن الخمسين وتجاوزها ليس حقيقة مأساوية .. كما أنه أولا وأخيرا حقيقة ليس فى مقدوره أن يغيرها، لكنكِ بكل تأكيد تستطيعين أن تغيرى من ظروف حياتك التى صاحبت بلوغك هذه المرحلة الناضجة من العمر .. وأعنى بها الوحدة والاغتراب والإحساس بمرارة الخذلان .. تستطيعين أن تتزوجى ، بل لابد أن تفعلى فى مثل ظروفك ، فالغربة مع الوحدة والانقطاع عن الأهل ظروف يشق احتمالها على الرجال .. فكيف بسيدة مثلك ؟ إن هناك دائما زوجة ملائمة لرجل فى مرحلة معينة من العمر ، وزوجا ملائما لامرأة فى مرحلة معينة من عمرها ، لكن الأهم كيف يهتدى كل منهما إلى الآخر ؟ وامرأة فى الخمسين بلا أولاد هى الزوجة المثالية لأرمل فى مثل عمرها أو أكبر قليلا يحتاج لمن يشاركه رعاية أولاده ، أو لمطلق فى نفس الظروف ، أو لوحيد فاته قطار الزواج ولم تعد له رغبة فى الإنجاب ، أو لزوج هجرته زوجته وكبر أولاده وانشغلوا بحياتهم عنه ولم يطلقها حفاظا على الشكل الاجتماعى ورعاية لمشاعر الأبناء رغم انفصاله عنها ..

والإنسان فى هذه المرحلة من العمر يحتاج إلى ما يسمى « بزواج الإيناس » .. الذى يجد فيه شريكا يؤنس وحدته ويشاركه اهتمامات الحياة الصغيرة ويحتسى معه قهوة الصباح وشاى العصر .. ويتبادل معه الرأى حول غلاء الأسعار وأخبار الدنيا وأخلاق الجيل الجديد .

والاهتداء إلى زوج مناسب أو زوجة مناسبة فى كل مرحلة من

العمر ليس شيئا صعب المنال إذا اعترف الإنسان لنفسه أولا بحقيقة عمره ولم ير فيه ما يدعوه للاستخزاء .. بل للفخر به .. لأنه بالفعل من أهم مؤهلاته لكى يكون الشريك الملائم لمن يحتاج إلى شريك مناسب .. له وبغيره قد تتراجع فرصته فى الزواج ، ولعلك أنت شخصيا يا سيدتى قد لمست ذلك حين ترددت صديقتك فى ترشيحك لقريبها اعتقادا منها أنه يكبرك بكثير ، وبعض أسباب شقاء الإنسان ترجع أحيانا إلى غموضه وإلى حرصه على أن يحيط نفسه بالأسرار الغامضة .. فإذا ما تخلى عنها واستخدم لغة واضحة فى حياته فلربما تخفف من كثير من متاعبه .. فإذا كان الأمر كذلك فليكن هدفك واضحا ولغتك فى الوصول إليه واضحة .. وصارحى من تثقين فيهم بكل شىء عنك ، وأول ذلك حقيقة عمرك واعتزازك ببلوغك هذه المرحلة من العمر ، ورغبتك المشروعة العادلة فى الاهتداء إلى شريك حياة ملائم ليشاركك سنوات النضج والخبرة والفهم الصحيح للحياة .. ولا بأس بأن يصغرك سنوات قليلة .. ولا بأس بأن يكبرك حتى عشر سنوات ، فهذه كلها مرحلة واحدة من العمر لها نفس الخصائص والسمات ، وليس لفارق السن البسيط فيها أى تأثير سلبى على علاقات الطرفين .. وبعدها لن يطول انتظارك ولا انتظار غيرك إن شاء الله إن تخلوا عن الإحساس بالتقاعد والإحالة إلى المعاش وانتهاء الدور لمجرد أنهم قد بلغوا سن اكتمال صنع الإنسان !



# رسائل أب إلى ابنه [١]

ترى ماذا يستطيع أب أن يقول لابنه إذا كتب إليه عددًا من الرسائل الطويلة الصادقة ؟

إن كل أب يريد أن يقول لابنه الكثير والكثير .. ولكن ما « يستطيع» أ ن يقوله له يختلف إلى حدٍّ كبير عما « يريد» أن يقوله .

لهذا فقد تكون « الرسائل » وسيلة مريحة فى بعض الأحيان لكى يتمكن الأب من أن يُنَفِّسَ من خلالها عما يعتمل داخله من أفكار وهواجس وأمنيات تجاه ابنه .. بل لعل وسيلة الكتابة إلى الابن قد أصبحت فى بعض الأحيان الوسيلة المناسبة للتواصل معه ، سواء بقصد أن يقرأ الابن ويشعر بما يتفاعل فى أعماق أبيه تجاهه من مشاعر ومخاوف وآمال ، أو بقصد أن يطلق الأب العنان لخواطره الحبيسة التى قد لا يجد أحيانًا الشجاعة النفسية لأن يبوح بها لابنه ، أو لا يجد فى أحيان أخرى استعدادًا كافيًا لدى الابن لأن يستمع إليها فى هذا العصر الذى ينطوى فيه الأبناء على أفكارهم وخواطرهم بعيدًا

عن الآباء والأمهات ، أو فى هذا العصر الذى يتوجه فيه الأبناء بنجواهم وصداقتهم إلى غير الآباء والأمهات بغير أن يدركوا - للأسف - كم يتلهف الأب على أن يفتح له ابنه صدره ويشركه معه فى خواطره وأشجانه وأحلامه .

لقد أصبح بعض الأبناء يعيشون حياتهم الآن بين ذويهم وكأنهم مغتربون عنهم فى أرض بعيدة ، بل إن الاغتراب النفسى أشق على الآباء من الاغتراب المكانى ، لأن شخص « المغترب » شاخص أمام مَن يتلهف على الاقتراب منه ، لكنه بعيد عنه بأفكاره وأشجانه وخواطره كأنما قد فَرَّقَتْ بينهما المحيطات والبحار !

كما أن بعض الآباء يشكون الآنَ من جفاف مشاعر أبنائهم تجاههم وعجزهم عن إدراك عمق احتياج هؤلاء الآباء والأمهات نفسيًّا وعاطفيًّا إلى قرب الأبناء منهم .. قربهم الوجدانى ، وليس المكانى .. لكنَّ القلوب الشابة لا تدرك ذلك للأسف فى غمرة فُتُوَّتِها وانشغالها بمباهج الشباب، ولا تتجاوب مع هذا الاحتياج العاطفى المؤلم لدى الآباء والأمهات ، وقد لا تستشعره من الأصل فى بعض الأحيان ، وهذه هى المأساة .

قال لى صديق إنه يشعر بالأسى لابتعاد ابنه عنه رغم كل محاولاته للاقتراب منه والاحتفاظ بصداقته ، ثم تَأَوَّهَ متألمـًا وهو يقول لى :

- هل تصدق أننى أَتَسَقَّطُ أخبار ابنى من بعض أصدقائه لأنه يَتَخَفَّى بها عنى وعن أمه وشقيقه الأصغر كأنها سر حربى لا يريد

لأسرته أن تعرفه ، ويخص بها فى نفس الوقت أصدقاءه ومعارفه دون أبيه وأمه؟

وشكا لى أب آخر من إحساسه المؤلم بالخجل حين يشعر باللهفة على أن يتسامر معه ابنه حين تجمع بينهما بعض أوقات الصفاء الشحيحة ، فيجد نفسه هو الذى يبادر ابنه دائما بالكلام وبالسؤال ، وباللهفة على الحديث إليه ، وابنه يكتفى كل مرة بالإجابة المتحفظة على أسئلته وبكلمات مقتضبة على قدر السؤال ، فكأنما يستجوبه فيجيب مضطرًّا ، أو يستنطقه فينطق وهو كاره !

فلماذا هذا الجفاء والصمت القاتل المريب بين بعض الأبناء وآبائهم وأمهاتهم ؟ ولماذا يعتقد بعض الأبناء أن بلوغهم سن الشباب يتناقض مع اقترابهم من آبائهم وأمهاتهم والبَوْحِ لهم بنجواهم وخواطرهم وشجونهم؟!

إن صمت الأطفال - كما يقول الروائى الروسى « دستويفسكى » فى روايته الممتعة « المساكين » - خروج على الطبيعة ، لأن الطفولة لعب ومرح وانطلاق ، ومن المؤلم حقًّا أن يصمت الأطفال ويستغرقوا فى التفكير بدلاً من أن يستغرقوا فى اللعب والضحك !

فإذا كان صمت الأطفال مؤلما عند « ديستويفسكى » ـ وهو كذلك فى الحقيقة ـ فإن صمت الأبناء فى سن الشباب مع آبائهم وأمهاتهم أشد إيلامًا للمشاعر وأكثر جرحًا للقلوب ، لأنه خروج أيضًا على طبيعة العلاقة التى ينبغى أن تقوم بين الآباء والأمهات وبين الأبناء ، ولأنه أيضًا إعلان صامت من هؤلاء الأبناء أنهم قد « نفوا » آباءهم

وأمهاتهـم من دنياهـم وحكمـوا عليهـم بالبُعـدِ القَسْرِى عنهـم .

ولقد أثار هذه الخواطر لَدَىَّ كتاب فريد وقع فى يدى لفترة محددة «اخْتَلَسْتُهُ » خلالها لنفسى .

وأصل الحكاية أننى قد تلقيتُ رسالة من قارىء عمره ٨٢ عامًا ، يقول فيها إنه قارىء كهل ، وله أمنية صغيرة هى أن يعيد قراءة بعض الكتب الثمينة التى قرأها فى شبابه وكانت تضمها مكتبته ، ثم ضاعتْ منه خلال رحلة العمر ولم يستطع تعويضها . وَنَشَرْتُ رسالته فى بريد الأهرام بعنوان « أمنية القارىء العجوز » ، فلم تمضِ على نشرها ساعات إلا واتصلتْ بى السيدة « نوال المحلاوى » - مديرة مركز الأهرام للترجمة والنشر - لتقول لى إنها قد قرأتْ هذه الرسالة وتأثرتْ بأمنية هذا القارىء الكهل وقررتْ أن تحققها له ، فأرسَلَتْ مندوبًا يطوف بمكتبات القاهرة القديمة ويبحث عن هذه الكتب المطلوبة لإرسالها إلى القارىء .

وفى اليوم التالى ارسلتْ إلىَّ ما استطاع مندوبها العثور عليه من هذه الكتب ، فكان من بينها كتاب يسمى ( من والد إلى ولده ) بقلم «أحمد حافظ عوض » ، صاحب جريدة « كوكب الشرق » ، وعضو البرلمان المصرى القديم .

وما أن رأيتُه حتى قررتُ تأجيل أداء الأمانة لصاحبها لمدة يومين فقط لأقرأه خلالهما قبل إرسال الكتب للقارىء الكهل ، واستغرقتُ فى قراءته هذين اليومين باستمتاع شديد ، وقاومتُ بصعوبة أشد هواتف

النفس الأَمّارة بالسوء التى وَسْوَسَتْ لى أن أقوم بتصوير هذا الكتاب وإرسال الصورة إلى القارىء مع بقية الكتب ، والاحتفاظ لنفسى بالأصل النفيس الذى صدرتْ طبعته الثانية سنة ١٩٢٦ م . غير أننى تغلبت أخيرًا على هذا الوسواس الخناس وأرسلتُ الكتاب مع بقية الكتب إلى القارىء الكهل ، ولكن بعد أن كنتُ قد اختزنتُ فى عقلى وذاكرتى وأوراقى أهم ثماره وأزهاره .

فأما الكتاب فلقد تَصَدَّرَهُ بيت الشعر القديم الشهير :

وإنمـــا أولادنـــا بيننـــا أكبادنـــا تمشى على الأرض

وقد قدم لطبعته الأولى ابن المؤلف الشاب ، فقال فى كلمته :

« هذه مجموعة رسائل كان يبعث بها إلىّ والدى من مصر وأنا طالب فى الكلية الأمريكية فى بيروت ، وقد حرصتُ عليها طوال هذه السنين حرص البخيل على درهمه ! وما كنتُ أظن أن هذه الرسائل ستُنْشَرُ فى كتاب ، كما أن والدى لم يكن يفكر وهو يبعث بها إلىّ من القلب إلى القلب أنها ستعْرَضُ على الأنظار وتُقدم للناس فى مختلف البقاع والأمصار ، فأنا - بكل أدبٍ وَوَجَلٍ - أقدم هذه الرسائل الخاصة إلى أهل الفضل وعشاق الأدب وطُلّاب الحقيقة أينما وجدت » .

ولقى الكتاب عند صدوره رواجًا مفاجئًا أذهل مؤلفه نفسه ، ونفدت - كما قال فى تقديمه للطبعة الثانية - نسخ الكتاب بسرعة غير مألوفة فى عالم المطبوعات العربية ، فأعاد طبعه وضم إليه كلمات التقريظ والاستحسان التى تلقاها من أئمة الفكر والأدب فى زمانه ،

ومنهم «محمد المويلحى » و « مصطفى لطفى المنفلوطى » ، و « عبد العزيز البشرى » ، و « عباس محمود العقاد » ، و « إسماعيل مظهر » ، وشاعر القطرين « خليل مطران » ، والأديبة « مى زيادة » وغيرهم .

وأما رسائل الكتاب التى يصفها الابن بأنها قد صدرتْ من القلب إلى القلب ، أو بمعنًى أصح من القلب إلى ثمرته الحبيبة ، فلقد بدأها كاتبها برسالة عن دوافعه لكتابة هذه الرسائل إلى ابنه ، يحدثه فيها عن عاطفة الحب الأبوى ، فيقول له : « لقد خَبِرْتُ العواطف على جميع درجاتها وأصنافها ، فلم أجد عاطفةً أقوى تملكًا للنفس وتمسكًا بالحس من الحب الذى شعرتُ به نحوَكَ منذ أن وُلِدْتَ إلى اليوم » .

ويستعيد إلى ذاكرته بطاقة التهنئة التى تلقاها من صديق أديب بمناسبة مولد هذا الابن ، فيتأمل من جديد كلماتها المعبرة :

« اليوم يُفتح لك فى قلبك باب قد كان من قبل مغلقًا ، وسيكون هذا الحب الأبوى وسيلةً لتهذيب مشاعرك وتلطيف مزاجك وترقيق وجدانك» !

ويعترف الأب الأديب أنه حين قرأ هذه الكلمات فى حينها لم يستوعب جيدًا معانيها ، غير أن تجربة السنين قد أوضحت له ما التَبس عليه وقتها فهمه ، وأدرك بالتجربة الشخصية كيف ساهم هذا « الباب » الذى فُتح فى قلبه بالفعل فى تهذيب مشاعره وتَرقيق وجدانه وتلطيف مزاجه .. فليس كتجربـة الأبـوة والأمومـة تجربة ـ فى قوة تأثيرها على شخصية الأم أو الأب ، وعلى نظرته إلى الحياة وخطّته فيها وأولوياته بشأنها !

أذكر - وأنا أكتب هذا المقال الآن - أننى حين رُزِقْتُ بابنى الوحيد أنَّ زميلة لى بالأهرام عرفتُها سنوات طوال قد سألَتْنى عما أشعر به بعد أن أصبحتُ أبًا لأول مرة فى حياتى ، وكنتُ حين وَجَّهَتْ إلىَّ هذا السؤال عائدًا لتوّى من المستشفى الذى شهد مولد ابنى بعد أن تلامستُ فيه لأول مرة عن قرب مع معجزة الخلق الإلهية ، ووقفتُ ذاهلًا مضطرب المشاعر أمام هذا الكائن الحى الصغير الذى جاء إلىَّ من عالم الغيب فى لحظة خلق نورانية عجيبة ، فخطف قلبى من اللحظة الأولى التى رأيتُهُ فيها ، وملَك عَلىَّ جماع نفسى وهو مجرد قطعة من اللحم البشرى لا تدرى من أمرها شيئًا . ولقد وجدتُ نفسى أجيب على سؤال زميلتى إجابة تلقائية غريبة ، هى أننى أشعر الآن بالخوف أكثر من أى فترة فى حياتى الماضية كلها ، شأنى فى ذلك شأن من هبطتْ عليه فجأةً من السماء ثروة طائلة بعد طول إملاق ، فسعد بهذه الثروة الطارئة سعادة طاغية ، لكنه بدأ فى نفس اللحظة يعرف الخوف القاتل عليها كل لحظة من الضياع . فكأنما قد سَعِد بها وشَقِىَ فى نفس الوقت!

ولم أكن حين أجبتُ زميلتى بهذه الإجابة التلقائية قد قرأتُ بَعْدُ ذلك البيت من الشعر العربى الذى يقول فيه الشاعر :

هَذَا الصَّغِيرُ الَّذِى وَافَى على كِبَرٍ   أَقَرَّ عَيْنِى ولكن زادَ فى فِكْرِى !

وحين قرأتُهُ فيما بعد أعجبت به كثيرًا ، ووجدتُ فيه ترجمةً بديعةً لهذا المزيج العجيب من مشاعر الفرح والخوف والقلق التى تضاربتْ

فى نفسى حين عرفتُ الأبوّة لأول مرة فى حياتى .. فإذا أردتَ أن تعرف بعد كل ذلك ماذا كتب « أحمد حافظ عوض » لابنه فلسوف تشعر بالإعجاب إلى حد كبير بقيم ذلك العصر الذى كتب فيه هذا الأب رسائله إلى ابنه ، وبأسلوب هذا الأب فى التربية ، فلقد قال لابنه فى رسالته الأولى إنه لا ينكر عليه أن يجد نفسه ذات يوم مختلفًا معه فى بعض آرائه التى يسطرها إليه فى هذه الرسائل ، لكنه ينبهه فقط إلى أنه لا يحق له أن يضع هذه الآراء موضع الشك قبل أن يبلغ مثل سنه وتجربته فى الحياة.

ثم يحدثه فى الرسالة الثانية عن اقتناعه بضرورة أن يرتوى الطفل من طفولته حتى الشِّبَعَ قبل أن يبدأ فى تَحَمُّلِ هموم التعليم ومئونته ، ولهذا فلقد اختار له ألا يبدأ دراسته الابتدائية إلا حين بلغ سن الثامنة !

ويحدثه فى الرسائل التالية عن أهمية تنمية مَلَكة الاستقراء والبحث والملاحظة لديه ، ويلفتُ نظره إلى أن ما يتلقاه الأبناء من علم فى المدارس لا يكفى وحده لأن يسلحهم بسلاح الخبرة والمعرفة والقدرة على مواجهة الحياة ، لهذا فإنه ينبغى له أن يستكمله بملاحظة الحياة وسؤال أهل الخبرة عن كل ما يستغلق عليه فهمه ، وبالتفكير فى شئون الدنيا والعلاقات الإنسانية فيما يسميه المؤلف « بالتمرين العقلى » ، وهى رياضة يحتاج إليها الأبناء بنفس قدر احتياجهم إلى الرياضة البدنية التى يسميها « التمرين البدنى » .

ثم يحدثه بعد ذلك عن أهمية تعلم اللغات الأجنبية بعد إجادته

للعربية وآدابها وفنونها ، وكيف يرى أن الابن الناجح هو مَن يحرص على إجادة لغته العربية « نحوًا وآدابًا » ـ على حد تعبيره – ثم يجيد من بعدها إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية « نحوًا وآدابًا » أيضًا . ولا يكتفى بذلك ، وإنما يضيف إليه كذلك إجادة الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس ، ويَحدثه عن تجربته الشخصية فى ممارسة الترجمة ، وما تتطلبه من ذوق أدبى ينبغى لمن يمارسها أن يتمتع به .. ويرشح لابنه عيون الشعر والأدب الإنجليزى التى يرى له أن يقرأها ويحفظها .

ثم لا ينسى أن يحدثه بعد ذلك عن « العلم الذى أحب لك أن تميل إليه » وهو التاريخ ، ويطيل الحديث عن أهمية قراءة التاريخ واستيعاب دروسه والاستفادة من تجاربه وحكاياته وعِبَرِه .

ويأتى بعد ذلك دور العلوم الطبيعية وأهميتها كسلاحٍ أساسىٍّ من أسلحة المعرفة التى يحتاج إليها الشاب فى حياته ، ثم اختيار المهنة التى يمتهنها الابن ، وينصحه بألا يعمل إلا بما يحب من الأعمال ، وأن يخلص لعمله كما يخلص المحب لمحبوبه .

ويهدى إليه تجربة عمره التى تؤكد له أن الثروة وحدها لا تصنع السعادة ، وإنما يصنعها رضاء الإنسان عن نفسه وعمله وحياته وممارسته لما يحب من أعمال ، ومصاحبته لمن يستريح إليهم من البشر.

ثم تتوالى نصائح الأب لابنه فيما يتعلق بأهمية السلوك القويم

وكسب ثقة الناس ، والتواضع ، والكفاح من أجل تحقيق النجاح فى الحياة ، ويُذَكِّرُهُ بما قاله الشاعر الإنجليزى « ميلتون » من أن العقل فى موضعه من الرأس هو الذى يصنع جحيم الإنسان أو نعيمه .. ويُذَكِّرُهُ أيضًا بأهمية الحزم وعدم التردد ، والكفاح فى الحياة بغير انتظار معجزات الحظ لكى تحقق للإنسان آماله ، مع التسليم بدور الحظ فى النجاح .

وتتوالى النصائح والإرشادات نابعة من القلب ، ومُعَطَّرَةً بعطر الحب والإخلاص والرغبة الصادقة فى أن يَسْعَدَ الابن بحياته ، وأن تكون رحلته فى الحياة أفضل وأسعد من رحلة الأب نفسه فيها ، وهى الأمنية الصادقة لكل أب وكل أم لأبنائهما .. لكن قليلاً ما يدرك الأبناء .. وقليلاً ما يفهمون !

تُرَى كم من الآباء والأمهات يرغبون الآن فى كتابة مثل هذه الرسائل الطويلة لأبنائهم بعد أن عجزوا عن التواصل معهم وهم على بعد أمتار قليلة منهم ؟

# رَسائلُ أَبٍ لابْنـه [٢]

ماذا أستطيع أنا أن أكتب إذا بعثت لابنى بضع رسائل كتلك التى كتبها الكاتب الأديب أحمد حافظ عوض لابنه وضمنها كتابة الفريد « من والد إلى ولده » !

ترى هل سأحدثه فيها عن حبى له ، وأقول له ما قاله حافظ عوض من أنه قد خبر كل أنواع العواطف فلم يجد فيها عاطفة أقوى من عاطفة الأب نحو فلذة كبده ؟

وهل تحتاج مثل هذه البديهية إلى تأكيد وتسجيل ؟

إنّ علماء البلاغة يقولون لنا إن السكوت عن المعلوم بلاغة ! وهذا صحيح فى فنون القول والكتابة ، لكنه ليس صحيحا فى تقديرى فى مجال العلاقات الإنسانية ، فنحن فى أمس الحاجة نفسيا وعاطفيا لأن نؤكد لأنفسنا ولأعزائنا كل يوم هذا « المعلوم » الذى ينصحنا البلغاء

بالسكوت عنه ، ويسعدنا كثيرا أن يكرره علينا من نحبهم ويحبوننا ، ويسعدهم هم أيضا أن نفعل نحن معهم ذلك ، ولهذا فالسكوت هنا عن «المعلوم » ليس بلاغة وإنما جفاف فى المشاعر وتجاهل لحقائق النفس وفشل معيب فى إدراك احتياجاتها الأساسية . لقد كنت أعجب وأنا فى مرحلة الشباب لما أراه فى الأفلام الأجنبية من مشهد يتكرر كثيرا فيها هو مشهد زوجة تحدث بالتليفون زوجها فى شأن من شئون حياتهما الأسرية ، ثم تختتم حديثها له بأن تقول له فى رقة : « أحبك » .. فيجيبها برقة مماثلة : «وأنا أيضا أحبك » ! ويضع السماعة ويرجع إلى عمله منتشيا ومزودا بجرعة جديدة من الحب تهوّن عليه متاعب الحياة ، وتقوّى من عزيمته على الصمود لكل المصاعب والمضايقات .

أو مشهد أب يناقش ابنه الشاب فى أمر من أمور حياته ومستقبله ، ويختلف معه فى الرأى ويعجز عن إقناعه بما يراه هو محققا لسعادته ومصلحته ، فيزهد فى مواصلة المناقشة ويقول له منهيا الجدال حولها : «افعل ما تراه الأفضل والأصلح لك من وجهة نظرك ، لكن تذكر دائما أننى أحبك وسوف أظل كذلك مهما يكن القرار الذى تتخذه فى هذه المسألة » . فيرد عليه الابن منفعلاً : « وأنا أيضا أحبك يا أبى ولا أتصور الحياة بغيرك » ، ثم يندفع إلى أحضان أبيه ويحتضنه الأب ويقبله وهو يشعر بكل ما فى الدنيا من سعادة وأمان .

نعم .. كنت أعجب لمثل هذين المشهدين ، وأبحث عنهما فى حياتنا العائلية فلا أجد لهما مثيلاً فى كثير من الأحيان ، ثم تقدم بى العمر

فازددت فهما لأهمية ما يمثله هذان المشهدان من معان ورموز ، وازددت عجبا لخلو حياتنا العائلية من أمثالهما .. فنحن قد اعتمدنا للأسف على هذه القاعدة البلاغية الفاسدة وأسرفنا فى ذلك حتى أصاب الجفاف بعض المشاعر وأصاب الشلل بعض الألسنة واختفت كلمات الحب فى علاقاتنا الأسرية بدعوى أن « المعلوم » لا يحتاج إلى تكرار تأكيده أو التذكير به ! وهذا خطأ بالغ فى فهم طبيعة الإنسان وعمق احتياجه الدائم إلى الزاد العاطفى المتكرر كل يوم ، بل وكل ساعة إذا أمكن ذلك .

إن الزوجة تحتاج نفسيا وعاطفيا لأن يكرر عليها زوجها فى كل مناسبة كلمات الحب والعشق والهيام ، وأن ينشد لها أناشيد الغرام من حين إلى آخر كما كان يفعل معها قبل الزواج ، وفى أيامه الأولى .

والزوج يحتاج نفسيا وعاطفيا لأن تؤكد له زوجته مشاعرها العاطفية نحوه كل حين ، ولو فعلت ذلك لازداد ثقة فى نفسه ورضا عنها وعن حياته ، ورغبة فى إسعاد زوجته . والأب فى حاجة لأن يذكره أبناؤه فى كل لحظة بأنهم لا يزالون يحبونه ويعتمدون عليه ويحتاجون إليه نفسيا وعاطفيا كما كانوا يفعلون وهم صغار حين كانوا يرون الحياة بعينى هذا الأب ويتلقون خبراتهم الأولى معها عن طريقه وعن طريق أمهم . والأبناء أيضا ومهما بلغوا من العمر يحتاجون لأن يعبر لهم آباؤهم وأمهاتهم عن حبهم لهم بالكلمات إلى جانب التصرفات والأفعال ، ولا أدرى لماذا يخجل ابن شاب من أن

يعبر عن مشاعره العاطفية بالكلمات تجاه أبيه وأمه وإخوته ؟.. ولماذا « يؤجل » هذا التعبير دائما إلى أن يتعرض أحدهم لمحنة المرض أو يرحل عن الحياة لكى يطلق العنان لعواطفه الحبيسة تجاهه ؟

إننى لو كتبت لابنى مثل هذه الرسائل التى كتبها حافظ عوض لابنه، فلن أحدثه طويلاً عن أهمية إجادة اللغة العربية – نحوا وآدابا – واللغة الإنجليزية أيضا نحوا وآدابا كما فعل هو فى زمانه ، كما أننى لن أطيل الحديث أيضا معه عن أهمية الكفاح والجدّية فى الحياة لبلوغ الأهداف ، أو أهمية الالتزام بالفضائل والقيم الخلقية والدينية والتواضع إلخ .. نعم لن أفعل هذا لأننى أحسب أنى قد أديت بعض رسالتى معه فى ذلك ، وكان منهجى معه هو ألا أحدثه عن أهمية العمل الجاد فى الحياة لكى يحقق نجاحه فيها ، وإنما ألا يرانى فى معظم الأحيان إلا منكبا على أوراقى بالساعات الطوال وحتى طلوع الفجر معظم أيام الأسبوع .

وكان منهجى أيضا ألاّ أحدثه عن أهمية القراءة بالنسبة لشاب يتطلع لأن يكون قادرا على مواجهة الحياة بعقلية أفضل ، وإنما أن يرانى أمامه لا أحتفى بشىء مثل احتفائى بقراءة كتاب جديد ، ولا أسعد بشىء مثل سعادتى بقراءة كتاب قيمّ أثرى وجدانى ومعارفى بشىء ثمين، وألا أحدثه عن أهمية إجادة العربية والإنجليزية – نحوا وآدابا – كما فعل حافظ عوض ، وإنما أن يرانى وقد بلغت من العمر ما بلغت أضع على مكتبى فى البيت بعض كتب النحو المدرسية لأرجع إليها

إذا استشكل على إعراب كلمة أو عبارة ، وأضع بالقرب منى قواميس اللغتين العربية والإنجليزية لأستعين بها فى فهم ما يستغلق على فهمه من أسرارهما ، ولعلى قد تعمدت مرارا وتكرارا أن أكلفه هو أو أخته بالبحث عن معنى كلمة ما فى قاموس اللغة العربية أو الإنجليزية لكى يكتسب عادة استخدام القواميس والاعتماد عليها فى إثراء لغته .

ولعلى قد تعمدت أيضا فى كثير من الأحيان ألا أجيبه عن سؤال وجهه إلىّ هو أو أخته حين كان فى مرحلة التساؤل والبحث عن إجابات للأشياء المحيرة ، مكتفيا بإرشاده إلى اسم كتاب موجود بمكتبتى وطالبا منه إخراجه من المكتبة وفتحه على بعض صفحاته وقراءتها لكى يجد فيها الجواب على ما سأل عنه ، ولو كنت قد أجبته على ما سأل عنه لما علقت إجابتى بذهنه طويلاً ، وأما بحثه هو عن الإجابة وتجشمه عناء استخراجها من بطون الكتب فلا شك أنه يعينه على ألاّ ينساها بسهولة فى قادم الأيام .

ولقد اتبعت دائما هذا النهج معه ومع أخته ، وحاولت تدريبهما على البحث عن إجابات لما يعنّ لهما من أسئلة فى دوائر المعارف التى أحتفظ بها بمكتبتى ، وقلت لهما مراراً إنّ الجهل خطيئة للقادر على اكتساب المعرفة ، وإن من يعرف أنه يجهل شيئا ولا يسأل عما يجهله فلقد أضاف إلى آفة الجهل خطيئة الكسل عن طلب المعرفة الميسورة له إذا بذل بعض الجهد أو تحمل بعض العناء . ثم دارت الأيام دورتها ودرس ابنى الكمبيوتر وتفوق فيه وعمل فى مجاله ، واشتريت له منذ

بضع سنوات جهازا حديثا للكمبيوتر ، فأصبحت أنا الذى يحاول الآن جاهدا أن يتعلم على يديه بعض أسراره بعد أن كنت أعلمه الأشياء وآخذ بيديه لكى يخوض بحر المعرفة ، بل وأصبح مألوفا فى حياتنا أن أكون منشغلا بكتابة مقال فأتوقف أمام معلومة تحتاج إلى توثيق أو إضافة فألجأ إليه لكى يبحث لى عن سندها ومعلوماتها الموثقة فى جهازه السحرى العجيب، ولا تمضى دقائق حتى يحمل إلىّ بضع صفحات استخرجها من دائرة المعارف المسجلة على دسك صغير لا يزيد حجمه على حجم كف اليد فأستعين بها على ما أكتبه وأنا أتعجب لأحوال الدنيا العجيبة التى جعلت من هذا القرص الصغير بديلاً أسرع وأوسع علما من أجزاء دائرة المعارف البريطانية التى تنوء بها رفوف مكتبتى ، أو من الموسوعة العربية الميسرة التى توقفت معلوماتها عند سنة صدورها فى الستينات .

فأما التواضع فى الحياة والرضا بما تأتى به الأقدار والالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية والفضائل الشخصية فلم يكن يجدى الكلام فى محاولة إكسابها لأحد ما لم يقترن ذلك بالعمل والقدوة والمثال .

فإن رضيت عن أشياء كثيرة فى حياتى وشكرت الله سبحانه وتعالى عليها آناء الليل وأطراف النهار فإنه يجىء فى مقدمتها تشابه الرؤية بينى وبين ابنى وابنتى فى نظرتنا إلى الحياة والسعادة والأشياء الجديرة بأن يسعى إليها الإنسان وتلك التى لا تستحق أن يشقى بمحاولة طلبها أو السعى إليها ، إذ أننا جميعا لسنا والحمد لله ممن

يرون السعادة فى المال وحده ولا ممن يحتفون كثيرا بأهداف الثراء فى الحياة أو يقيّمون الآخرين على أساس ما يملكون من ثروة ، كما أننا لا نرى الآخرين جديرين بصحبتنا إلا بأخلاقياتهم وقيمهم وفضائلهم وليس بأى شىء آخر ، ولا يشغلنا لوهلة ماذا يملك الآخرون بالقياس إلى ما نملك نحن ، ولا يعنينا أن يكون لدى الآخرين مالا يتاح لنا من أعراض الدنيا، ولا نقارن حظوظنا فى الحياة بحظوظ غيرنا ، ولو فعلنا ذلك لوجدنا بين أيدينا مالا يكفى العمر كله للشكر والامتنان لرب العالمين عليه .

كما أن أحلامنا فى الحياة ليست مادية وإنما « معنوية » ، وتتلخص فى أغلى الأمنيات الجديرة حقا بالاعتبار وهى الصحة والستر وراحة القلب والبال ، ولست أزعم لنفسى فضلاً فى اكتساب أبنائى هذه الرؤية الخاصة للحياة ، بل لعلى لا أذكر أننى قد « حاضرتهم » ذات يوم عن أهمية السعادة فى الحياة والرضا بما يُتاح للإنسان من أسباب دون النظر لحظوظ الآخرين فيها ، وإنما أحسب أن المعايشة اليومية ، والقيم السائدة فى أية أسرة هى التى تشكل تلقائيا وجدان الأبناء بالإضافة إلى ما يرقبونه من مواقف الأبوين إزاء بعض الاختبارات التى تترجم رؤيتهم للحياة وأفكارهم عنها ومبادئهم الأخلاقية تجاهها .

إذن فماذا أستطيع أن أقول لابنى إذا أردت أن أكتب إليه مثل رسائل حافظ عوض لولده ؟

لا شك أن لدى الكثير والكثير مما أريد أن أقوله له ولأخته ، لكنى إن فعلت ذلك فلسوف أبدأ رسائلى إليه وإلى كل الأبناء بمطالبتهم بأن يتخلوا مع آبائهم وأمهاتهم عن ذلك الدرس « الفاسد » من مدرس البلاغة القديمة وأقول لهم إن السكوت عن المعلوم فى مجال العلاقات الإنسانية وخاصة بين الأبناء والآباء والأمهات ليس من العلامات الصحية بين الطرفين فى شىء ، فتخلوا – يرحمكم الله – عن صمتكم مع آبائكم وأمهاتكم وإخوتكم ولا يشعرن أحدكم بالخجل من أن يعبر عن مشاعره العاطفية تجاه أبيه أو أمه مهما بلغ به العمر ، ولا من استخدام نفس المفردات التى يستخدمها العشاق مع هذا الأب وتلك الأم ، بل تبادلوا مع آبائكم وأمهاتكم كلمات الحب والغرام التى تخصون بها غيرهم كل يوم إذا أمكنكم ذلك ، لأن حاجة الآباء والأمهات إلى ذلك شديدة وملحة ، وهى حاجة تنمو لديهم وتتعمق كلما تقدم بهم العمر وراودهم الإحساس المرير بأنهم لم يعودوا كما كانوا بالنسبة لأبنائهم وهم صغار فى بؤرة الاهتمام وقلب الدائرة ، وإنما تراجعوا عن قلبها إلى أطرافها الهامشية، وحل محلهم لدى الأبناء شركاء قلوبهم وأصدقاؤهم والعشرات من دونهم .

إن المؤسف حقا هو أننا لا نستشعر عمق احتياج آبائنا وأمهاتنا العاطفى إلينا إلا بعد أن يكونوا قد رحلوا عن الحياة وصنعنا نحن أسرنا الصغيرة وعايشنا مشاعر الأبوة وخبرناها ، فأدركنا كم كنا جفاة القلوب عصاة المشاعر تجاه آبائنا الراحلين ، وكم كنا قساة

وأغبياء حين لم ندرك فى الوقت المناسب ما كانوا يتوقون لأن نقدمه لهم من عطاء معنوى وشغلنا الحمق وغرور الشباب عن أن نلبيه لهم ، فأورثناهم الحسرة من حيث لم نرغب أو نريد . فإذا كانت ثمة نصيحة أوجهها لكل الأبناء فهى النصيحة البسيطة التى تطالبهم بألّا يكرروا أخطاء من يعضون الآن بنان الندم ويترحمون على الراحلين من الآباء والأمهات ويهتفون صامتين كلما أمضّهم الألم : يا ليتنا كنا قد قدمنا لآبائنا وأمهاتنا بعض ما نتلهف الآن على أن يقدمه لنا أبناؤنا ، ويا ليتنا كنا قد تجنبنا اللوم الصامت من آبائنا وأمهاتنا كما نلوم نحن الآن فى صمت أبناءنا على جهلهم لعمق احتياجنا العاطفى لهم وتقصيرهم فى تلبيته لنا بالكلمة الحانية والحديث الدافئ الطويل وبالمفردات العاطفية التى يخجلون جهلا وحمقا من استخدامها معنا !

# دفاعٌ فى الوقت الضّائع

أحسستُ كأنى أقف فى ساحة محكمة وهمية .. « أترافع » فيها عن آرائى ومعتقداتى ، وهذه الصحفية الشابة تجلس أمامى ساهمةً مهمومةً بشىء غامض لا أعرفه ، ولا تريد الإفصاح عنه !

إنها « سيدة » جميلة فى الثلاثينيات من عمرها ، وزوجة منذ عشر سنوات ، وأم لطفلين أكبرهما فى التاسعة من العمر ، وتعمل بصفة غير منتظمة بإحدى المجلات العربية ، وتكرس معظم وقتها لبيتها وطفليها.

أما « الاتهام » الخطير الذى واجهتْنى به وشعرتُ من كلماتها أنه يعكس بعض ظروفها الشخصية ، فهو أننى فى ردودى وكتاباتى فى بريد الجمعة بالأهرام أتخذ دائمًا صَفَّ الأبناء وأطالب الآباء والأمهات بأن يتحملوا حياتهم ، بل وتعاستهم إذا تطلب الأمر ذلك فى سبيل

الحفاظ على استقرار الأبناء وسعادتهم .. وأننى أخصُّ الأمهات غالبًا بمطالبتهن بهذه التضحية لأبنائهن مهما كانت درجة معاناتهن وتعاستهن مع الآباء .. وأننى أنكر على الأمهات والآباء حقهم فى التطلع إلى سعادتهم الخاصة إذا تعارضتْ هذه السعادة التى يحلمون بها مع سعادة أبنائهم واستقرارهم بين أبوين طبيعيين تحت سقف أسرة واحدة ، حتى ولو كانت سماؤها ملبدة دائمًا بغيوم الشقاق والنزاع .. وأننى أيضًا « أجلد » بقلمى الأم التى تنفصل عن زوجها وتضحّى بمصلحة أبنائها الصغار لكى تتزوج ممن رأت أنه « النصف الصحيح» لها الذى أخطأتِ الطريق إليه من البداية ، وأفعل ذلك معها بأقسى مما أفعل مَع الأب الذى قد يرتكب نفس التصرف !

وسألتنى الصحفية الشابة بصوت خفيض بعد أن سرَدت عَلىَّ عريضة الاتهام هذه :

– أليس من حق المرأة أن تضع سعادتها أيضًا فى الاعتبار إلى جانب سعادة أبنائها ؟ .. وأليس من حقها إذا كشفتْ لها تجربة الزواج عن تعاسةٍ لا أمل فى النجاة منها أن تبحث عن سعادتها مع رجل آخر ولو تحمل الأبناء بعض العناء والتشتت فى سبيل تحقيق هذا الحلم ، كما تحملت هى من أجلهم تعاسة الحياة لعدة سنوات مع مَن لم تقدم لها معاشرته إلا الشقاء ؟

واستمعتُ إلى تساؤلها المتردد وأنا أشعر بالرثاء لها أكثر مما أشعر بالاحتجاج على اتهامها لى ، فلقد أحسستُ أنها تُعَبِّرُ به عن نفسها

وتتلمس الطريق إلى تهدئة خواطرها ، وربما أيضًا إلى « تشجيعها » على ما تتردد أمامه وتتمزق بينه وبين عاطفتها تجاه أطفالها .. فتقبلتُ «اتهامها » لى بصدر رحب ، ثم تهيأتُ للدفاع عن نفسى وآرائى ، فقلت لها إننى أبدأ إجابتى على ما سألتِنى عنه بأننى أعتبره نوعًا من العتاب .. لأن العتاب يكون دائمًا بين الأصدقاء ، أما الاتهام فيكون عادةً بين الخصوم ، ولستُ أعتبر نفسى خصمًا لأحد ، وأظن أيضًا أن مَن توجه إلىَّ هذا الاتهام لا تعتبرنى كذلك ، فإذا كنتُ بعد ذلك أشتد فى لومى لمن تترك صغارها الذين يحتاجون إلى عطفها وحنانها وتحرمهم من الاستقرار والأمان وحقهم العادل فى أن ينشأوا نشأة طبيعية بين أبوين لأنها ضاقت بحياتها مع زوجها أو نفد صبرها سريعًا على احتمال متاعب حياتها معه ، أو لأنها توقفتْ فى منتصف الطريق وراجعتْ نفسها وتساءلتْ : ولماذا أمضى بقية العمر فى حياة لا تحقق لى أحلامى فى السعادة ، ومن حقى أن أبحث عنها فى طريق آخرَ ولو أدى الأمر إلى تمزق أطفالى بينى وبين زوجى ؟ .. أقول إننى إذا كنتُ أشتد فى لومى لمن تسارع بهدم عشها وتشتيت أطفالها مفضلةً سعادتها الشخصية على استقرارهم فإنى أفعل ذلك مدفوعا بعدة اعتبارات هامة .

وتوقفتُ لحظةً لأرتب أفكارى قبل أن أستطرد فى الحديث ، فلاحقَتْنِى الصحفية الشابة بالسؤال متلهفة :

– وما هى هذه الاعتبارات ؟

فأجبتها بأننى أؤمن دائمًا بأن الأسرة فى كل المجتمعات - المتقدمة منها والمتخلفة -هى أسرة أمومية أكثر منها أبوية ، بمعنى أن عمادها الحقيقى الذى يقيم بنيانها ويحفظها من الانهيار هو الأم غالبًا وليس الأب ، وأنه إذا كانت السلطة فى الأسرة للأب فإن ما يحفظ كيانها واستمرارها هو الأم فى الأغلب الأعم ، لأن الرجل أكثر نَزَوِيةٍ من المرأة وأكثر استجابة لنزعاته وأكثر جرأة تجاه الإقدام على تغيير حياته .. فى حين أن المرأة أكثر ميلاً للاستقرار وأكثر ارتباطًا بأبنائها وبمسئوليتها العائلية عنهم من الرجل .. لذلك فقد يتشتتُ الأبناء الذين يفقدون أمهم بأكثر مما يتشتتُ ويتفرق الأبناء الذين يفقدون أباهم ، لأن الأم - حتى فى حالة رحيل الأب أو غيابه أو انفصاله عنها وانصرافه إلى ملذاته وحياته الشخصية - تحتضن هؤلاء الأبناء وتفرد جناحيها عليهم ، فلا يضيعون فى الحياة كما قد يضيع مَن يفقدون أمهم فى بواكير العمر . هذا هو أول اعتبار يدفعنى لتذكير الأم بمسئوليتها الخطيرة عن حماية أبنائها من التشتت والضياع إذا فقدتْ قدرتها على احتمال حياتها الزوجية وسعت إلى هدم المعبد فوق رؤوس الصغار ، أما باقى الاعتبارات فلا تقل أيضًا خطورةً عن ذلك ، وهى :

- أننى أؤمن بأن الآباء والأمهات ليسوا مسئولين فقط عن إعالة أبنائهم وإطعامهم وكسائهم وتربيتهم وتعليمهم ، لكنهم مسئولون كذلك عن إسعادهم حتى ولو تحققتْ هذه السعادة على حساب تعاسة أحد الأبوين أو كليهما معا . ومنطقى فى ذلك واضح وبسيط ، وهو أننا

لم نستشر هؤلاء الأبناء فى أمر إنجابهم قبل أن نأتى بهم من عالم الغيب .. ولم نستشرهم كذلك فى اختيارنا لشركاء حياتنا ، وليس من العدل أن يدفعوا ثمن أخطائنا فى التعامل مع هؤلاء الشركاء ، أو يعاقبوا على سوء اختيارنا لهم من البداية .

والإنسان الشريف هو من يتحمل صابرًا تبعات أعماله وأخطائه ولا يطالب الآخرين بأن يدفعوا معه هذا الثمن .. وإذا سَلَّمْنا بهذا المبدأ فإنه لابد أن يدفعنا لأن نبذل كل ما فى وسعنا لإنجاح الحياة الزوجية والحفاظ عليها ، فنؤدى بذلك واجبًا إنسانيًا عامًّا تجاه أبنائنا الذين لا يسعدون إلا بنشأتهم بين أبوين طبيعيين مهما كانت معاناة أحدهما مع الآخر ، فضلاً عن أنهم لا يفهمون أبدًا لغة « السعادة الخاصة » التى يبرر بها أحد الأبوين وقوعه فى هوى « النصف الصحيح » الذى ضلَّ إليه الطريق من البداية ، أو التقى به فجأة عند منعطف هام فى حياته ، أو وجد لديه سعادته الحقيقية التى افتقدها فى حياته البائسة .

إن الأبناء لا يفهمون أبدًا هذه « اللغة » ولا يقبلونها ، ولا يُعفون الأب أو الأم من مسئوليتهما عن حرمانهم من الحياة فى أسرة طبيعية مع أبوين يُظلهما سقف واحد مهما كانت مبررات كل منهما لما فعل . ولقد نشرتُ فى بريد الجمعة منذ سنوات رسالةً لأم فى الثانية والخمسين من عمرها تشكو لى فيها مُرَّ الشكوى من ابنتها الوحيدة الشابة التى لا تكفّ عن لومها وتحميلها مسئولية انفصالها عن أبيها وهى طفلة لأنها لم تحتمل حياتها معه فانفصلتْ عنه وكَرَّسَتْ

حياتها لهذه الابنة ولم تتزوج بعد أبيها ، ومع ذلك فلم ترحمها هذه الابنة حين كبرت وغَدَتْ شابة ، ووجدتْ أباها يعيش مع زوجة أخرى وله أبناء منها ينعمون بالحياة الأسرية السعيدة ، فى حين تبدو هى أمام مَن يريد أن يتقدم لخطبتها فتاةً وحيدةً تعيش فى كَنَفِ أم مطلقة ، مما يقلل من اعتبارها أمامه ويثير شكوكه فى قدرتها على الحفاظ على الحياة الأسرية ،فراحت « تَجْلِدُ » أمها كل يوم بالحساب والعتاب وبالسؤال المؤلم : لماذا لم تتحملى حياتَك مع أبى من أجلى ؟ ولماذا سارعت بالتسليم بالهزيمة ولم تتمسكى بحياتِك معه لكيلا أشعر بهذا الحرج أمام فتاى وهو يسألنى عن أسباب انفصالك عن أبى ، ويتخوّف من تجرئى على طلب الانفصال عنه عند أول أزمة تكراراً لتجربتك فى الحياة ؟

ورغم قسوة هذه الفتاة على أمها - بل وظلمها لها أيضًا وهى مَن كَرّسَتْ حياتها لرعايتها - فإنها تكشف من حيث لا تدرى عن منطق الأبناء الذى لا يعترف إلا بحقهم فى أن يُجَنِّبهُمُ الآباء والأمهات أى خلل فى الشكل الاجتماعى والعائلى أمام الآخرين ، ولو دفعوا ثمن ذلك غاليًا من سعادتهم الشخصية .

وهممتُ بأن أواصل حديثى ، فلاحظتُ فجأةً أن سُحُبَ الهموم الداخلية تتكثَّفُ داخل محدثتى وتنعكس على وجهها الحزين ، حتى شككتُ فى دقة متابعتها لحديثى .. ولولا جهاز التسجيل الموضوع أمامى لأدركت أنها ستعجز عن استرجاع كلامى لتنشره فى المجلة التى

تكتب لها ، فتوقفتُ لحظةً حتى شعرتُ بأنها قد أفاقتْ من شرودها ثم قلتُ :

إنَّ سَعْىَ الإنسان إلى سعادته الشخصية أمر مشروع ولا غبار عليه، ومن حقه بلا شك إذا افتقد الحب والتفاهم مع شريك حياته أن يتخلص من هذه الحياة ويبحث لنفسه عن حياة أخرى يتحقق له فيها ما يصبو إليه من أمان وسعادة ، ولكن بشرطٍ هام هو ألاّ يكون لسعادته المرتقبة هذه ضحايا أبرياء لا ذنب لهم ولا جريرة فى تقلب المشاعر والأهواء ، ولا فى سوء الاختيار منذ البداية . ومن أسباب الشقاء الإنسانى – بصفة عامة – تعارض أسباب السعادة بين الناس فى كثير من الأحيان، بحيث يصبح ما يحقق له السعادة هو نفسه ما يحقق الشقاء لآخرين من الأعزاء أو غير الأعزاء بنفس الدرجة ، حتى لَأكاد أُسَلِّمُ أحيانًا بتلك العبارة المتشائمة التى تقول : « إن السعادة فى هذه الدنيا لا تواتينا إلا فى الأحلام » ، وأقصد بها تلك السعادة الحقيقية الشاملة التى لا يؤرقها تصوّر تعاسة الآخرين بأسباب هذه السعادة نفسها ، ولا تثمر الشقاء للآخرين فى نفس الوقت .

ولهذا كله فمن واجبنا أن نضع اعتبارات الآخرين فى حسابنا ونحن نسعى وراء هذه السعادة المشروعة ، ولهذا أيضًا فإننى لا أعترض أبدًا على انفصال الزوجين إذا استحالتِ العشرة بينهما إنْ لم يكونا قد أنجبا أطفالاً، أو إذا كان الأبناء قد كبروا وشبوا عن الطوق واكتمل تكوينهم النفسى وأصبح لكل منهم حياته الخاصة التى لا تتأثر جذريا

بانفصال الأبوين، والأمر فى ذلك متروك دائمًا لتقدير الإنسان لمسئوليته عن أبنائه ولضميره الأخلاقى . والأخلاق القويمة – كما يقول الكاتب الإنجليزى «تشسترفيلد » – تقوم دائمًا على التضحيات الصغيرة ، وليس هناك على ظهر الأرض مَن يستحق أن يقدم لهم الإنسان مثل هذه التضحيات أكثر من أبنائه ، فهل يكون من النُبل أن يبخل عليهم بها وفى مقدوره أن يقدمها لهم إذا استنجد بالصبر على بعض متاعب حياته ؟

إننى لا أطالب أحدًا بما طاقة له به ، إذ ﴿ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلاّ وُسْعَها لَها ماكَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبتْ ﴾ ، لكنى أطالب الآباء والأمهات فقط بألا يستسهلوا قرار هدم الأسرة وبأن يبذلوا غاية جهدهم لاحتمال حياتهم وإطالة فترة الأمان والاستقرار التى يستمتع بها صغارهم إلى أبعد مدًى ممكن ، فإذا عجزوا عن الاستمرار أكثر من ذلك واستحالتْ العشرة نهائيا بينهم ، فلا أحد يطالب الإنسان بما لا طاقة له به ، و﴿ إن يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِن سَعَتِه ﴾ ، ولكن بعد أن يكون قد أدى واجبه الإنسانى تجاه أبنائه ، وجاهد جهاد المخلصين لحماية أسرته من الانهيار وحماية أبنائه من التمزق الأسرى ولم يعد بوسعه أن يتحمل أو يقدم المزيد .

هذا هو ما أطالب به الآباء والأمهات .

أما أن يستسهلوا قرار الانفصال بغير جهاد طويل لتفاديه ، أو أن

يرجح أحد الأبوين سعادته الشخصية على سعادة أبنائه بلا توقف أمام مصلحتهم ومستقبلهم وما سوف يتعرضون له من آثار سلبية وخيمة لهذا الانفصال ، فهذا هو ما أعدّه حقًّا أنانيةً بغيضة تتعارض مع مفهوم الأبوة والأمومة الصحيح ، وهو عطاء بلا انتظار للمقابل ، وحماية نفسية واجتماعية للأبناء .

توقفتُ عن الحديث والتزمتُ الصمت مترقبًا تعليق مُحَدِّثَتِى .. فقالت لى وهى تغالب ترددها وحرجها :

– ولكن .. ولكن .. ألم يُحِلُّ الله الطلاق وييسره ؟ .. فلماذا إذن نطالب الآخرين باحتمال حياتهم والطلاق ميسور ، والأبناء سينشأون فى حضانة الأم لفترة ثم فى حضانة الأب بعد ذلك ولن يخسروا الكثير بانفصال الأبوين ؟ ! .. أليس إنقاذ الأطفال من معايشة خلافات الزوجين ومنازعاتهما أفضل لهم نفسيًا وتربويا من النشأه فى حياةٍ زوجيةٍ مضطربةٍ بالخلافات ؟

وأدركتُ ما يدور فى أعماقها من صراع خفى بين نداء الواجب الإنسانى تجاه الأطفال ، وبين نداء السعادة والرغبة فى التخلص من الشقاء ، فقلتُ لها فى إشفاق :

– نعم يا سيدتى .. لقد أَحَلَّ الله الطلاق، لكنه لم ييسره كما تتصورين بل بَغَّضَ فيه وكَرِهَهُ ، حتى لقد قال أحد الفقهاء إن الإسلام لم يكره شيئًا حلالا كما كره الطلاق ، وحتى لقد تعجب العالم الجليل

فضيلة الشيخ « محمد الغزالى » من بعض هؤلاء الفقهاء الذين يُيَسِّرونه وقد صَعَّبَ الله منه ووضع دونه العراقيل ، واشترط أن تسبقه جهود مُضنية للإصلاح وإنقاذ الحياة الزوجية من الدمار ، فاشترط أن يستنفد الزوج كل المراحل السابقة له : من النصح والإرشاد ، إلى الهجر فى الفراش ، إلى التأديب ، إلى التحكيم ، ثم أخيرًا – وبعد أن تفشل كل الحيل – الطلاق .

أما مسألة إنقاذ الأبناء من الآثار النفسية الضارة للحياة فى أسرة مضطربة بالخلافات بين الزوجين ، فلقد أثبتتْ دراسات علم النفس الحديثة أن نشأة الأبناء الصغار فى بيت منقسم على أهله أو مضطرب بالخلافات والمنازعات الزوجية أفضل لهم نسبيا من تمزقهم بين أبوين يحيا كل منهما حياته الخاصة المستقلة ، وأفضل لهم أيضًا من نشأتهم فى أسرة « وحيدة الأب » – وهو التعبير الذى يُطْلَقُ على الأسرة التى تتحمل مسئوليتها الأم وحدها أو الأب وحده بعد الانفصال – وذلك مع التسليم التام بالآثار النفسية الضارة لمعايشة الصغار لخلافات الأبوين ومنازعاتهما . وإحصائيات الجريمة والانحراف الخلقى فى أمريكا – والغرب بصفة عامة – تؤكد هذه الحقيقة التى سَلَّمَتْ بها مؤخرًا دراسات علم النفس الحديثة بعد أن كانت تتبنى من قبل الرأى السابق ، وهو أن انفصال الأبوين المتنازعين أفضل نفسيا وتربويا بالنسبة للأبناء الذين يعايشون نزاعاتهما ، فأصبح علماء النفس الغربيون الآن يدعون إلى استمرار الحياة الزوجية لأطول فترة

ممكنة حتى ولو كانت غير مثالية ، وذلك حرصًا على السلامة النفسية للأبناء ، وحمايةً لهم من الانحراف الخُلُقى ، إذ أنهم – ومهما كانت نزاعات الأبوين – يبيتون فى النهاية تحت سقف أسرة قائمة تُظِلهم وتحميهم من أسباب الانحراف ، وخصوصًا فى مرحلة الطفولة والمراهقة ، ولهذا فإنى أقول وأردد دائمًا أن احتمال الإنسان لحياته الخاصة – رجلًا كان أو امرأة – إلى أن يشتد عود صغاره ويكتمل تكوينهم النفسى ويقوون على مواجهة الحياة وحدهم ، إنما هو تضحية نبيلة يقدمها الإنسان لمن يستحقون أن يضحى من أجلهم ، حتى ولو لم يُقَدرُوا له هذه التضحية أو لم يكافئوه عليها فى الكِبر .. لكن الإنسان للأسف يتجه إلى الفردية فى العالم كله ويبتعد تدريجيا عن الغيرية وما يرتبط بها من مفاهيم التضحية من أجل الأبناء والأهل إلخ . وقد كان من ثمار هذا الاتجاه الفردى شيوع النظرة « الفلسفية » التى تُرَوِّجُ لفكرة أن الحياة قصيرة ولا يعيشها الإنسان إلا مرة واحدة، وبالتالى فمن حقه ألّا يبددها فى المعاناة أو التضحية من أجل غيره ولو كانوا أبناءه ، وأن من حقه أن يطلب سعادته ويفعل كل ما يحقق له هذه السعادة دون التوقف أمام أى اعتبار آخر ، فإذا وجد نفسه ليس سعيدًا بالقدر الكافى مع زوجته ، فلينفصل عنها على الفور ويمزق أطفاله ويبحث عن سعادته ، وإذا التقى بامرأة أخرى ووجد لديها ما لم يجده لدى زوجته فما المشكلة ؟ .. فلينفصل عنها ويرتبط بالأخرى . أما الأبناء والصغار فلا مكان لهم فى هذه القرارات ، ولا

يجوز أن يتوقف أمامهم ويتحمل الصِّعاب من أجلهم ، لأن الحياة قصيرة .. والإنسان يعيشها مرة واحدة .. إلخ .

ولقد كان من نتائج هذا الاتجاه الفردى أن اقترب معدل الطلاق فى أمريكا وكندا وغرب أوربا من نسبة ٥٠ ٪ ، بل وتجاوزها فى بعض هذه المجتمعات .

وقد حدث هذا فى مجتمعات غربية لا تُيَسِّرُ الطلاق ولا تسمح به ديانة أهلها إلا بشروط عسيرة . فماذا يصبح عليه الحال لو كان الطلاق ميسورًا وفى متناول يد الإنسان هناك ؟ وماذا جَدَّ على هذه المجتمعات فى الخمسين سنة الأخيرة حتى ارتفعتْ نسبة الطلاق فيها إلى هذه المعدلات الخطيرة ، وَنزَوِيَّةُ الرجل قديمة وليست شيئًا طارئًا ؟

إن « الجديد » المزعج الذى رفع نسبة الطلاق إلى هذه المعدلات المخيفة هو أن المرأة أيضًا قد قلدتِ الرجل فى هذه المجتمعات فى نزويته وفرديته ورفضه للتضحية من أجل أبنائه ، وراحت تبحث عن سعادتها الشخصية بنفس الطريقة وبنفس هذا التسرع . فهل - سألتُ مُحَدِّثَتى الصحفية المهمومة - تريدون لنا أن نصل فى مجتمعاتنا إلى نفس هذه الحال ؟

انزعجتْ محدثتى للسؤال وسارعتْ بالنفى .. لكنها لم تُنْهِ اللقاء ولم تمد يدها لمصافحتى مودعةً كما توقعتُ ، وإنما رجعتْ لمغالبة ترددها قبل أن تسألنى :

- ولكنك تشتدُّ فى لومك للأم التى تتخلى عن أسرتها وأطفالها لتتزوج بمن ترى سعادتها معه ، ولا تُنَدِّدُ بالأب الذى يقدم على نفس التصرف بنفس القدر من اللوم الذى تشتد به على الزوجة .. أليست مسئولية كل منهما عن الأبناء واحدة ؟

استعصمتُ بالصبر والأناة وأجبتها : نعم ، المسئولية واحدة .. وكلاهما مَلُوم إذا تَخَلَّى عن صغاره بلا أسباب قهرية ليرتبط بمن يتوهم سعادته معه على حساب مصلحة صغاره .. وإنى لَأشْتَد فى لوم كليهما معًا إذا أقدما على هذا التصرف ، فإذا كنتِ ترينني أكثر لومًا للأم منى للأب فربما يكون ذلك تكريمًا للأم التى أُدْرِكُ خطورة دورها فى حماية صغارها من الانحراف والضياع .. ولأن الأمومة عطاء متصل للأبناء إلى ما لا نهاية ، ولأنها حين تهجر صغارها جريًا وراء سعادتها الشخصية فإنها تناقض بذلك مفهوم الأمومة النبيل تناقضًا صارخًا ، أما الرجل فلقد سلمنا منذ البداية بأنه أكثر نزوية وفردية من المرأة ، وعلى قدر الود يكون العتاب كما يقولون !

بدا لى بعد ذلك أن محدّثتى قد اسْتَنْفَدَتْ كل ما فى جُعبتها من تساؤلات حائرة ، فنهضتْ لتصافحنى ومازالت ظلال الشجن الغامض تحيط بها ، ونهضتُ لوداعها وهاجس غريب يلحّ عَلَىَّ بأنها لم تكن تُجْرِى معى حوارًا صحفيا للنشر .. وإنما حوارًا جَدَلِيا بين أفكارها وشجونها التى تلح عليها ، وبين آرائى ومعتقداتى التى أُعَبِّرُ عنها وتتصادم مع أمنياتها ورغباتها .

راقبتُها وهى تغادر مكتبى مهمومة حزينة كما جاءتنى ، وتخيلتُ ما تكابده من صراع بين نداء التضحية من أجل صغارها وبين نداء الأمل فى سعادة تقف دونها الصعاب والأهوال ، فتساءلتُ صامتًا : ترى هل نجح « دفاعى » الحار فى الانتصار لنداء الأمومة والتضحية فى داخلها، أو أننى لم أزدها به إلا حيرةً واضطرابا بعد أن كانت قد حسمتْ أمرها قبل أن تزورنى فجاء حوارى معها كلامًا فى الوقت الضائع ؟ !!

لم تسمح لى الظروف بعد ذلك بأن أعرف الإجابة الصادقة لهذا التساؤل ، إذ لم تعد لزيارتى مرة أخرى ، ولم أقرأ أيضًا هذا الحديث منشورًا فى المجلة التى تكتب لها ، ولم يبقَ لى إلا الأمل فى أن يكون نداء الأمومة السحرى قد واصل معها مهمته الخالدة كما فعل مِرارًا من قبل ، وكما سوف يفعل دائمًا وإلى ما لا نهاية !

قُل يا رب !

# الْبَناتْ لازِمْ « تِتْجَوِّزْ »

تذكرتُ اسم هذا الفيلم المصرى القديم « البنات لازم تتجوز » كثيرًا خلال زيارتى الأخيرة لليابان .

أما لماذا تذكرتُهُ ،فلأن ما سمعتُهُ من بعض الفتيات اليابانيات اللاتى تحدثتُ معهن وبعض السيدات من قادة الحركة النسائية فى اليابان، وبعض السيدات من جيل النساء القديم ، أعاد اسم هذا الفيلم القديم إلى ذهنى ولكن بمفهوم المُخالفَة ..إذ كنتُ قد طلبتُ خلال إعداد برنامج زيارتى لليابان أن ترتب لى الجهة الداعية لقاءً مع عددٍ من شباب الجيل الجديد لأتحاور معهم وأتعرف على أفكارهم .. وفى مقر جمعية الصداقة العربية اليابانية التقيتُ بهؤلاء الشباب والفتيات فأفزعَتْنى بعض أفكارهم !

سألتُ فتاة عمرها ٣٥ سنة عن موقفها من الزواج ، فأجابتنى ببساطة أنها لم تتزوج ولن تتزوج أبدًا حتى اليوم الأخير من حياتها !

لماذا ؟

لأنها لا ترى أى دوافع تدفعها للزواج وتحمُّل مسئولياته .

وهى تعيش الآن حياتها فى سلام ، وتعمل وتكسب ، ولها صديق ، ولا ينقصها شىء .. فما معنى أن تُثقل كاهلها بمسئولية رعاية بيت، ومسئولية رعاية زوج ، ومسئولية إنجاب أطفال و « خدمتهم » وتعليمهم ورعايتهم صحيًا بحيث لا يصبح لها هدف فى الحياة سوى الاهتمام بأمرهم !

وأذهلتنى الإجابة بالفعل ، وتناقشتُ معها قليلًا حول المستقبل وأهمية أن يكون إلى جوارها إنسان تتبادل معه العطف والحب والاهتمام ، ويؤنس وحدتها فى الليالى الموحشة حين يتقدم بها العمر ، وأهمية أن يكون لها أيضًا أطفال تفرغ فيهم أمومتها وتتواصل مع الدنيا من خلالهم ، ويجددون رغبتها فى الحياة .. فلم أجد لحديثى هذا أى صدًى لديها.. وإنما قالت لى ببساطة إنها تعيش حياتها الآن بحرية ، وأن الزواج ليس فى النهاية سوى أعباء ومسئوليات لا تجد فى نفسها الرغبة فى تكبّدها !

ظننتُ هذا الرأى جموحًا شاردًا من فتاة تعيش حياتها على هواها ، لكن ما حدث خلال نفس اللقاء أَكَّدَ لى العكس..

فلقد كان من هؤلاء الشباب فتاة أخرى صغيرة سألتها عما تخطط له فى المستقبل ، فأجابتنى بأنها تخطط لأن تتزوج ذات يوم وتنجب طفلًا واحدًا أو طفلين ، فإذا بأكثر من فتاة من الحاضرات تتدخل فى الحديث لتوضح لى أن هذا « الرأىَ » لا يُعَبِّرُ عن الاتجاه العام لغيرها من الفتيات، وأن هذه الفتاة تُعَبِّرُ عن نفسها فقط وليس عن غيرها من فتيات اليابان.

أى أن هذا الرأى البديهى الذى يتفق مع طبائع الأمور ليس هو القاعدة ، وإنما الاستثناء !

وبالرغم من ذلك فإنى لم أعوّل كثيرًا على ما سمعتُ من رفض هؤلاء الفتيات لفكرة الزواج ، واعتبرتُهُ وجهًا خاطئًا لتحرر فتيات الجيل الجديد فى اليابان ، و الذى يتناقض تمامًا مع الصورة الشائعة عن الزوجة اليابانية التى كنا نشاهدها فى الأفلام القديمة وهى تنحنى تحيةً لزوجها وتخلع حذاءه .. إلخ .

غير أنى وجدتُ نفسى مضطرًّا لأخذ هذا الاتجاه فى الاعتبار حين زرتُ بعد ذلك سيدة يابانية فى بيتها بمدينة صغيرة على بُعد ساعة بالقطار من طوكيو ، وتحدثتُ معها عن أسرتها ، فقالت لى ببساطة إن

لديها بنتًا عمرها ٢٧ سنة تدرس الطب ولم تتزوج ولا ترغب فى الزواج! وابنًا عمره ٢١ عامًا يعمل مدربًا للسباحة ويقول هو أيضًا إنه لن يتزوج ، لكنها تعتقد أنه سيغير رأيه فى المستقبل .. أما ابنتها فلا يبدو فى الأفق ما يشير إلى أنها سوف تغير رأيها بشأن الزواج ذات يوم .

والسؤال الذى لابد أن يطرحه مَن يسمع هذه الإجابة - خصوصًا إذا كان قادمًا مثلى من المنطقة العربية - هو :

- ولماذا لا تريد ابنتكِ الزواج يا سيدتى ؟ وألا يحزنك ذلك ؟

فأما إجابة السؤال « لماذا » فهى تكرار لما سمعتُهُ من الفتاة الأولى فى حوارى مع الشباب بمقر جمعية الصداقة .

وأما إجابة الشطرة الأخرى من السؤال فهى :

- يحزننى ذلك قليلًا ، لكنها حياتها وهى المسئولة عنها !

كما وجدتُ نفسى أتلامس مع هذا الاتجاه أيضًا حين تحاورتُ مع الأمينة العامة لاتحاد الجمعيات النسائية فى اليابان ، وأشارت فى حديثها إلى أن هذه الموجة موجودة بالفعل بين الفتيات وتحتاج إلى مواجهتها بالإقناع وبمزيدٍ من المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، وأحد أسباب المشكلة - فى تقديرها - هى أن المجتمع

ينظر إلى مهام رعاية البيت والأبناء ورعاية كبار السن من آباء الزوج والزوجة وأمهاتهم على أنها مسئولية المرأة وحدها ، ولابد من تغيير هذه النظرة لتصبح مهامَ مشتركة بين الزوج والزوجة لكى يزيد إقبال الفتيات على الزواج .

والمدهش حقًا هو أننى حين توقفتُ فى لندن فى طريق العودة من طوكيو وأمضيتُ ليلةً فى فندق قريب من المطار ، فتحتُ التليفزيون صباح اليوم التالى لوصولى - وكان يوم سبت - فشاهدتُ فى برنامج اليوم المفتوح مناقشة عن الظاهرة نفسها ، ورأيتُ المذيع يخاطب متخصصًا فى الشئون الأسرية عن رأيه فى الزواج ، وهل ما زال ضرورة اجتماعية أم أنه يمكن الاستغناء عنه ؟ ! .. وسمعتُ الخبير الكهل يقول فى انفعال : إن الزواج هو العلاقة الآمنة الوحيدة فى كل أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة ، وأنه يجب « الحفاظ » عليه لصالح الأسرة والأبناء والمجتمع !

كما رأيتُ المذيع يستضيف أيضًا رجلًا وسيدة متوسطى العمر ويناقشهما حول « القضية» نفسها، ويدافع الضيفان عن الزواج كنظام اجتماعى لأنه حماية للأطفال والمجتمع والبشرية من الضياع والانقراض ، والمذيع - الذى يربّى شعره ويجدله فى ضفائر طويلة -

لا يبدو متحمسًا للفكرة ، ويجادل الضيفين فى إمكانية الاستغناء عن علاقة الزواج واستبدالها بعلاقات أخرى !

يا ربى !.. إن مناقشة المُسَلَّماتِ دليل على أنها قد فقدتْ جلالها وأصبحتْ خاضعة للرفض والقبول ، فإلى أين تتجه البشرية ، وكيف سيكون المصير ؟

لقد بدأتْ هذه الموجة فى الغرب منذ عِقدين أو ثلاثة عقود ، وتمثلتْ فى اتجاهٍ فكرىٍّ لدى بعض الفتيات والنساء يعتبر الزواج «تضحية» من المرأة بحريتها الشخصية من أجل مَن تحب ، وأنه حين تقدمها الفتاة لمن اختارته فإن عليه أن يقدر لها هذه « التضحية » الكبرى ويخلص لها الحب والود والعطاء طوال الرحلة .

فأما أنه تضحية بالحرية الشخصية فلأن الفتاة تعيش حياتها فى حرية كاملة بدون زواج ، وتعمل وتكسب وتتولى مسئولية حياتها المادية والاجتماعية ، فماذا يدفعها لأن تتقبل فكرةَ سيطرةِ رجل آخر على حياتها والتزامها به دون غيره ، وتحمّل كل المسئوليات معه ؟

هذا هو الأساس الذى نبعتْ منه هذه الموجة ، لكن الفتاة الغربية - من ناحية أخرى - صادقة مع نفسها إلى حد كبير فى حديثها عن مسئوليات الزواج ، لأنها إذا تزوجت فهى لا تتزوج إلا بدافع الحب والرغبة فى أن تمضى بقية حياتها إلى جوار رجل تحبه ويحبها ،

وتلتزم برجلها التزامًا نهائيًا فلا تخدعه ولا تخونه ، ولا تتقاعس فى أداء واجباتها تجاهه وتجاه أسرتها وأطفالها ، لأن هذا الرجل هو اختيارها الحر ، وليس لديها ما يدفعها لاحتمال الحياة معه وخداعه إذا فقدت حبها له أو حتى استشعرت الملل فى حياتها معه ، فالطلاق ميسور والانفصال وارد ، ولا معنى لأن يحيا أحد حياة لا يريدها .

والذى يستحق التأمل فى هذا المجال حقًا هو أن المرأة الغربية التى تقبل بفكرة « التضحية » بالحرية الشخصية من أجل الزواج ممن تحب ؛ لا تقبل فى نفس الوقت فكرة التضحية من أجل الأبناء ، وتسرع بهدم المعبد فوق رؤوس أطفالها إذا يئستْ من بعث الدفء العاطفى فى علاقتها بزوجها ، أو إذا وقعتْ فى غرام رجل آخر .

فلا عجب إذن فى أن ترتفع نسبة الطلاق فى كندا – على سبيل المثال – إلى حوالى ٤٥٪ ، وفى أمريكا إلى حوالى ٤٠٪ ، وفى غرب أوروبا إلى حوالى ٣٠ أو ٣٥٪ ، أما فى اليابان التى زرتُها خلال هذه الرحلة فإن نسبة الطلاق فيها تزيد الآن عن ٢٥٪ ، أى أن رجلًا واحدًا من كل أربعة رجال مُطَلَّقٌ ويعيش منفصلًا عن زوجته ، وكل ذلك من تبعات انتشار الحرية الجنسية والمغالاة فى تقليد الجيل الجديد لأسلوب الحياة فى أمريكا والغرب ، وتزايد الاتجاهات الفردية بديلًا عن الاتجاهات العائلية الجماعية التى تضع سعادة الأبناء فى الاعتبار ، قبل اعتبارات الفرد واحتياجاته العاطفية والنفسية .

ومن أطرف ما عرفتُ خلال زيارتى لليابان أن مفهوم الأسرة فيها قد بدأ يتخلى عن نمط العائلة الكبيرة التى تضم إلى جانب الزوجة والزوج والأبناء ، آباء وأمهات الزوجين ، ويتجه إلى مفهوم الأسرة الصغيرة التى تتكون من الزوج والزوجة وأطفالهما فقط ، وقد خلق ذلك مشكلة جديدة فى الحياة العائلية هناك ، هى مَن يرعى الآباء والأمهات المسنين ؟ فاليابانيون معمّرون ، ومتوسط العمر عندهم ٦٨ عامًا ، ومن الشائع أن يكون للزوج الذى يبلغ من العمر ٦٥ عامًا مثلًا أُمًّا فى التسعين وأبًا فى الخامسة والتسعين ، وأن يكون للزوجة أبوين فى نفس العمر تقريبًا ومن واجبها رعايتهما ، فعلى مَن تقع مسئولية رعاية أبوى الزوج ؟

لقد كان الحال قديمًا أن يكون ذلك من مسئوليات الزوجة وحدها ، لكن رياح التغيير التى هبت على المجتمع أخرجتْ هذه المسئولية من دائرة البديهيات إلى دائرة الجدل !

وربما كان ذلك أيضًا من أسباب إحجام بعض الفتيات عن الزواج لكيلا يُضِفْنَ إلى أعباء رعايتهن لآبائهن وأمهاتهن أعباء رعاية أبوى الزوج ، وربما أجداده أيضًا !

فاليابانى - رغم بعض مظاهر التغريب العديدة فى حياته - ما زال يستشعر العار فى أن يودع أباه المسن أو أمه إحدى دور رعاية

المسنين، وإذا فعل ذلك مضطرًّا لعجزه عن رعايتهما أو لاحتياج الأبوين لرعاية صحية خاصة لا تتوفر إلا فى هذه الدور ، فإنه يَتَخَفَّىٰ خزيًا مما فعله ويخجل من أن يعرف به أحد ، ولقد لخص لى الشاب الذى خصصته وزارة الخارجية اليابانية لمرافقتى خلال الرحلة القضية كلها فى كلمة معبرة حين قال لى : أحد أسباب مشاكل مجتمعنا هى أن اليابانيين لا يموتون !.. يقصد أن أعمارهم تطول إلى ما فوق التسعين وأحيانًا المائة ، مما يخلق للأسرة مشاكل رعايتهم، وللمجتمع مشاكل إنشاء العدد الكافى من دور الرعاية ، فضلًا عن تخصيص بعض العاملين بالدور لرعاية هؤلاء المسنين فى بيوتهم على نفقة الحكومة .

ولأن الإدارات الحكومية تتفاوتُ خدماتها لهؤلاء المسنين من مدينة إلى مدينة ، ومن حى إلى حى داخل العاصمة نفسها ، فإن من أسباب انتقال اليابانى من حى سكنى يقيم فيه إلى حى آخر هو أن تكون الخدمات التى تقدمها إدارة هذا الحى للمسنين أفضل منها فى الحى السابق ، مما يرفع عنه عبئًا كبيرًا فى رعاية أبويه .

أما إحجام بعض الفتيات عن الزواج فلقد فسَّره لى المرافق بأن المرأة فى اليابان قد أصبحت « أقوى » كثيرًا مما كانت عليه فى الأجيال الماضية، وتطالب كل يوم بالمزيد من الحقوق والمزيد من المساواة ، فلا

عجب إذن فى أن ترفض بعض الفتيات الخضوع لقيود الزواج بعد أن أصبحن أقوى منه !

ويبقى فى النهاية أن أقول إن الدين هو العاصم الأول والأخير للمجتمعات البشرية من شطَحات الاتجاهات الفردية التى تمثل موجة إحجام الفتيات عن الزواج أحد مظاهرها .

ولهذا فلن ننزعج كثيرًا حين نسمع عن مثل هذه الظواهر فى الغرب أو فى اليابان أو فى أى مكان من العالم ، أو حين نجد على شاشة التليفزيون فى إحدى دول الغرب مناقشةً حول الزواج ، وهل ما زال ضرورة اجتماعية أم لم يعد كذلك ، فلقد رفضتِ الكنيسة الإنجيلية فى بريطانيا منذ شهور السماح لقساوستها بعقد زواج الشواذ ، وأدانت بشدة هذه الظاهرة ، أما موقف الإسلام من هذا الهراء فلا يحتاج إلى بيان ، فـ ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ و ﴿ ٱللَّهُ خَيْرٌ حافِظًا ﴾ للبشرية من مثل هذه الشطحات الغريبة .

ودائمًا وأبدًا فإن « البنات لازم تتجوز » لكى تتواصل الحياة وتتجدد دماء البشرية ، وتنجو المجتمعات الإنسانية مما يترصدها من شرور وأخطار !

## تليفون .. تمام .. مطرح !

يُخيِّل إلىّ أننى واحد ممن سيغادرون الحياة فى موعدهم المقدور لهم وفى نفوسهم غصَّة من شىء عجيب .. هو أنهم لم ينالوا فيها كفايتهم من النوم .. والراحة !

صحيح أنه سوف ينتظرهم نوم طويل ثقيل فى ختام الرحلة ، لكن ذلك لن يخفف أبدا من « حسرتهم » على ما فاتهم من متعة النوم المطمئن لساعات كافية فى الدنيا !

فأنا ومنذ سنوات طويلة أستيقظ من نومى بإرادتى أو راغما قبل أن أستوفى حاجة جسمى منه .

ومنذ طفولتى المبكرة وأنا موزع دائما بين نداء أشياء كثيرة فى الحياة تتطلب منى « الصحو » والحركة .. وبين نداء جسم يحتاج كغيره من الأجسام البشرية إلى ساعات كافية من النوم والراحة ، ولم

أنجح قط فى التوفيق بين النداءين ، وكثيرا ما خيل إلىّ أن « اليوم » أقصر كثيرا من أن يتسع لكل ما يريد المرء أن يفعله فيه .. ولهذا فلا مفر من النهوض من الفراش قبل أن يرتوى الجسم بالنوم وينال منه كفايته ..

والمشكلة هى أننى من هؤلاء الأشخاص الذين ينامون بصعوبة شديدة وكأنما يعزّ عليهم الغياب عن عالم الأحياء بالنوم وينهضون من نومهم مثقلى الرؤوس ... خائرى القوى لأنهم لم ينالوا كفايتهم من النوم !

فإذا كان الحال قد تغير فى السنوات الأخيرة ، وأصبحت مع التقدم فى العمر لا أحتاج لمجهود للتنبه من النوم .. حتى ولو لم أنل منه بغيتى، فلقد كان الحال مختلفا عن ذلك كثيرا فى سنوات الطفولة والصبا والشباب ..

ففى مرحلة الطفولة .. كانت يد أمى – رحمها الله وأحسن مثوبتها – تهزنى بعنف لأستيقظ من نوم لم أنل منه قط كفايتى لكى ألحق بموعد المدرسة .. وكان « الرجاء » اليومى الذى أتقدم به إليها كل صباح ـ ولم تقبله قط ـ هو أن تدعنى فى فراشى للحظات إضافية أخرى، فتطول الملاحاة بينى وبينها إلى أن أنهض راغما .. وأنا أتعجب « لغفلة » الإنسان الذى أقنع نفسه والآخرين بأن فى الحياة أهدافا

أخرى « أنبل » وأكثر رشدا وحكمة من هدف الراحة والاستمتاع بالنوم اللذيذ إلى أن يفيق منه تلقائيا بلا حاجة ليد أم تقطع عليه هذه المتعة .. أو صوت «منبه » كريه يفزعه ويقطع عليه أحلامه الجميلة !

صحيح أن كل من حققوا أهدافهم فى الحياة كانوا ممن لم يسمحوا لأنفسهم قط بالاستسلام لهذا النداء السحرى العجيب .. وكانوا دائما ممن ينامون مبكرا فى معظم الأحيان ، وينهضون مبكرا فى كل الأحوال.

لكن المشكلة بالنسبة لى كانت دائما – وما زالت ـ فى « الشطرة الأولى» من هذه الوصفة الحكيمة التى اتبعها كل من استمتعوا بصحة طيبة وعمر مديد ، وهى « شطرة » النوم المبكر التى يترتب عليها «جواب الشرط » – على حد تعبير النحاة واللغويين ! – وهو الصحو المبكر بالتالى .

فليس هناك خلاف على أن « البركة فى البكور » كما جاء فى الأثر، ولا على أن « الله يساعد أولئك الذين يستيقظون مبكرا » كما يقول المثل الأسبانى القديم .

لكن أزمتى كانت دائما مع النوم المبكر الذى لا يتحقق الصحو المبكر بدونه ، فلقد كنت وما زلت إنسانا « ليليا » ينشط فى الليل ..

ويفتقد بعض حيويته وحدة ذهنه فى الصباح الباكر لأنه لا ينام غالبا لساعات كافية.

ولقد ثبت مؤخرا أن للجينات الوراثية أثرا فى الطبيعة الليلية لقلة من البشر ، والطبيعة النهارية للغالبية العظمى منهم .. وأنه يمكن بأبحاث طويلة ـ لم تستكمل بعد – التأثير على « الجين » المسئول عن هذه الطبيعة وتغييرها بحيث تتوافق مع ظروف الشخص ومتطلبات حياته، لكن هذه الأبحاث لم تحقق غايتها بعد .

ولا أحسب أننى أريد – حتى لو حققت نجاحها – أن أغيِّر الطبيعة التى ألفتها وألفتنى معظم فترات العمر .

ولقد اشتهر «نابليون » بقدرته حين يشتد به الإجهاد على الاستسلام لإغفاءة قصيرة فوق حصانه وهو فى غمار معاركه الحربية .. وكانت هذه الإغفاءة تعوض جسمه عن قلة ساعات النوم فى حياته، حيث اعتاد أن يدخل فراشه فى العاشرة مساء .. وأن ينهض من نومه فى الرابعة !

أما أنا فلم يكن لى حصان أغفو فوقه خلال معركة الحياة ، ولاخضت المعارك والحروب التى خاضها نابليون وصنع بها مجده .. وإنما كانت أهدافى فى الحياة –وما زالت –شديدة التواضع ، ولا تتجاوز فى كثير من الأحيان ، الأمل الحسير فى حل هذه المعادلة

البسيطة ، وهى: كيف أستطيع الوفاء بكل واجباتى فى العمل والتزاماتى الشخصية والعائلية والإنسانية تجاه من أتعامل معهم ، وإشباع هوايتى فى القراءة والكتابة ، وأفوز فى نفس الوقت بست ساعات متصلة من النوم العميق المطمئن ؟ !

وحين قرأت الحكمة الإنجليزية الساخرة التى تقول : «إن ست ساعات من النوم كافية للرجل .. وسبعا كافية للمرأة .. وثمانى لا تكفى المغفل!»، قلتِ لنفسى : إننى رضيت بنصيب الرجل .. ولكن أين هو فى معظم الأيام والليالى ؟

وحين قرأت منذ سنوات فى «إحياء علوم الدين» للإمام «الغزالى» أن الإمام «الشافعى» - رضى الله عنه - قال ذات يوم : «ما شبعت منذ ست عشرة سنة قط لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسى القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة» .. هتفت صامتا: وأنا كذلك يا سيدى الإمام .. لم أشبع معظم سنوات حياتى من النوم، مع أنى لست من المغرمين بالطعام ولا من المفرطين فيه !

وحين تجاوزت مراحل الدراسة وبدايات العمل التى كانت تلزمنى الظروف فيها بمغادرة الفراش فى موعد مبكر لألحق بمواعيد لا أستطيع التخلف عنها ، تكفلت ساعة الجسم البيولوجية ، مع التقدم فى العمر ، بتنبيهى من النوم قبل أن أرتوى منه لألحق بموعد « قطار »

أبدى لا مفر لى من ركوبه ، ولأؤدى أعمالا وواجبات لا مهرب من أدائها ، ولن يتسع لها اليوم إذا استسلمت لمتعة الراحة .

وحتى حين أسافر إلى الخارج مدعوا من إحدى الجهات أو فى مهمة صحفية أو حتى فى إجازة ، فإن حالى لا يتغير كثيرا ، وغالبا ما أجد نفسى أدور فى نفس الحلقة المفرغة من الالتزامات والمقابلات .. والرغبات التى أهفو إلى تحقيقها ولا يتسع الوقت لها .. فأختصر من ساعات نومى وأطيل ساعات صحوى .

وحين أردت ذات مرة وأنا فى رحلة خارجية أن أستسلم لنداء الجسم المجهد وأضرب عرض الحائط بكل الالتزامات لمدة ثلاث ساعات فقط ، تكفلت أزمة سوء التفاهم الأزلية بين بنى البشر بحرمانى مما تطلعت إليه .

فلقد كنت فى زيارة صحفية لدولة «جيبوتى» منذ سنوات .. وهى دولة عضو بالجامعة العربية وتقع على ساحل البحر الأحمر فى شرق إفريقيا بجوار الصومال، ولا يحسن كثيرون من أبنائها الحديث باللغة العربية ، ويتحدث أكثرهم « الفرنسية » نظرا للاحتلال الفرنسى الطويل لبلادهم ، و « الصومالية » نظرا للجذور الصومالية لنسبة كبيرة من مواطنيهم .

وشُغلت طوال ٥ أو ٦ أيام بمقابلات عديدة مع مسئولين

بالحكومة من الصباح الباكر حتى المساء ، وبلقاءات مع أفراد الجالية المصرية قليلة العدد هناك فى الليل، فمضت الأيام وأنا ألهث للحاق بمقابلاتى والتزاماتى ، ورجعت فى اليوم السادس إلى فندق «شيراتون » فى الثالثة بعد الظهر وأنا خائر القوى من قلة النوم ، فتركزت كل أمنياتى فى هذه اللحظة فى أن أظفر بساعتين أو ثلاث ساعات من النوم أعوض بها قلة النوم وإجهاد الجسم فى الأيام الماضية .. فتوجهت إلى موظف الاستقبال الجيبوتى الشاب وطلبت منه – بالعربية المكسرة التى يتكلم بها ، وببعض المفردات الفرنسية التى يتحدث بها ، وباللغة الإنجليزية التى قال لى إنه يفهمها أفضل من العربية – ألا يزعجنى موظف السويتش بتحويل أية مكالمة تليفونية إلى غرفتى حتى السادسة مساء . وابتسم الشاب ابتسامة عريضة وهو يؤكد لى أنه قد فهم المطلوب وسينفذه بدقة .. لكننى لم أطمئن لذلك ، وكررت عليه الرجاء مستعينا ـ إلى جانب اللغة ـ بالإشارة إلى رأسى وإلى ساعتى بما يفيد بأننى سوف أنام حتى السادسة مساء .. وأراد هو أن يثبت لى فهمه للمطلوب فرفع سماعة التليفون وتحدث إلى موظفة السويتش بالصومالية، وسمعته يذكر اسمى ورقم غرفتى، ثم وضع السماعة مبتسما، فشكرته وانصرفت إلى غرفتى، ودخلت فراشى واستغرقت على الفور فى نوم ثقيل كالغيبوبة .. فما أن « رحت » فيه حتى نهضت مفزوعا على جرس التليفون .. فرفعت

السماعة ساخطا ووجدت مصريا من أبناء الجالية يؤكد على موعد اللقاء معه فى المساء .. وأجبت مكالمته باقتضاب ثم اتصلت بموظف الاستقبال معاتبا ، فاعتذر عن هذا « السهو » ووعد بألا يتكرر مرة أخرى ، وعدت للنوم ، فما أن استسلمت له من جديد حتى فزعت منه مرة ثانية على جرس التليفون ، ورفعت السماعة فوجدت القائم بأعمال السفارة المصرية هناك على الطرف الآخر من الخط، ورددت عليه وأنا شبه غائب عن الوعى ، وزهدت فى عتاب موظف الاستقبال فرجعت للنوم من جديد .. فلم تمض فترة أخرى حتى نهضت مفزوعا على رنين التليفون المزعج للمرة الثالثة .. وعجزت هذه المرة عن الكلام فمددت يدى إلى السماعة وطوحت بها إلى الأرض ورجعت للنوم .. فما أدرى هل طال بى الوقت أم قصر، لكننى تنبهت من نومى على صوت طرقات شديدة مزعجة على باب غرفتى، وتعجبت ممن يكون الطارق على الرغم من لافتة « الرجاء عدم الإزعاج » المعلقة عليه .. ونهضت من فراشى وأنا أتطوَّح كالسكارى ولا أكاد أرى ما أمامى، وفتحت الباب فإذا بى أجد موظف الاستقبال نفسه واقفا أمامى يقول لى بلغته العربية العجيبة :

– تليفوْن تمام مطرح !

فأجبته بتلقائية : ماذا تقول ؟.. فعاد يكرر : تليفون تمام مطرح !

وفهمت – بالرغم من عدم تنبهى الكامل – أنه يطلب منى بلغته «الهيروغليفية » أن أعيد وضع سماعة التليفون إلى موضعها الصحيح لكى أتلقى مكالمة جديدة !

ولست أدرى حتى الآن كيف كبحت جماح رغبة قهرية تملكتنى لحظتها فى أن أبطش به .. أو أمسك على الأقل بتلابيبه وأحمله مسئولية حرمانى من الراحة والنوم الكافى فى كل مراحل عمرى السابقة .. وليس فى هذه اللحظة فقط .. فلقد تمثل أمامى فى هذه اللحظة الخاطفة فى شكل وحش من وحوش الأساطير الإغريقية سلطته آلهة جبل الأوليمب على إنسان غضبت عليه .. فأمرت هذا الوحش ألا يدعه يستسلم للنوم أبدا لكى تضاعف من عذابه ! لكنى تمالكت نفسى فى النهاية .. و « تأكدت » من أنه ليس وحشا من هذه الوحوش .

ورجعت إلى فراشى مستسلما لأقدارى .. فأعدت سماعة التليفون إلى « تمام مطرح » .. وتلقيت المكالمة الخطيرة التى صعد موظف الاستقبال لكى يطلب منى استقبالها .. وكانت من فتاة جيبوتية شابة تتحدث من بهو الفندق .. وعلمت من الموظف أننى صحفى مصرى ، فأرادت أن تسألنى عن مصر وكيفية السفر إليها .. وأفضل الفنادق الرخيصة بها .. وماذا تفعل حين تصل إلى المطار .. وكيف تلتقى

بنجوم السينما العربية الذين تحبهم.. خاصة عادل إمام ومحمود عبد العزيز ؟! وتخيَّل حالى وأنا أجيبها عن هذه الأسئلة « الرائقة » وأنا فى أشد الضيق والتعب والإجهاد .

وانتهت المكالمة بعد عذاب وعلى وعد منى بأن ألتقى بها غدا لأعطيها المزيد من التفاصيل عن حياة نجوم السينما المصريين !

ونظرت إلى الساعة فوجدتها لم تتجاوز الرابعة مساء .

ويئست تماما من النوم.. فتوجهت إلى الحمام وصدى كلمات أغنية «فهد بلان » القديمة : « أهل الهوى . . مكتوب عليهم قلة الراحة» يتردد داخلى .

وغادرت الحمام مستردا بعض نشاطى، وبدأت ارتداء ملابسى لمواصلة « الكفاح » من جديد ، وأنا أتساءل عن أسباب هذا الحكم القدرى على بعض البشر بقلة الراحة فى الحِلِّ .. والترْحال !!

# عفـوا .. لقد نسيت

فى فيلم أمريكى قديم كان الممثل المطرب الأمريكى « فرانك سيناترا» صاحب الأغنية الرومانسية الشهيرة « غريب فى الليل » يؤدى دور شخص مدمن للمراهنة على كل شىء .. من نتائج المباريات الرياضية إلى أى شىء يجد من يراهنه عليه من معارفه وأصدقائه .. كأول رجل يدخل من هذا الباب ، هل سيكون طويلا أم قصيرا ؟ أبيض أم أسود ؟ إلخ .. وكان يتفاخر بقدرته على تذكر نتائج مباريات الكرة والبيسبول خلال ١٠ سنوات ماضية .

وخلال انهماكه فى الحديث عن قوة ذاكرته هذه فاجأه صديقه الذى كان من أكبر ضحاياه بأن وضع يده تحت ذقنه ورفعه لأعلى ثم قال له : مائة دولار على لون الكرافت التى ترتديها أنت .. ما هو لونها؟.. وخسر سيناترا الرهان لأنه عجز عن تذكر لون الكرافت التى

يرتديها ، فى نفس اللحظة التى كان يسرد فيها بدقة نتائج مباريات جرت منذ سنوات !

والعالم الألمانى اليهودى « ألبرت أينشتاين » الذى تبرع بمخه بعد وفاته لمراكز البحث العلمى لتقوم بتشريحه ومعرفة تكوينه وسر عبقريته، والذى توصل إلى نظرية علمية معقدة كان عدد من يستطيعون فهمها فى العالم كله فى بعض الأوقات لا يزيد على عشرات ، وكان يستطيع أن يجرى حسابات رياضية معقدة اعتمادا على ذهنه المتوهج وذاكرته العلمية المذهلة .. هذا العالم نفسه كثيرًا ما شكا من ضياع قلم كان بيده منذ لحظات وعجز عن تذكر أين تركه ، وفى بعض الأحيان كان يبحث عنه ويستنجد بزوجته ، فتمد يدها إلى مكتبه أمامه وتقدمه له!

أما «نابليون» فقد كان دقيق الملاحظة وحاد الذاكرة ، يتذكر أسماء قواده وضباطه على كثرتهم ويناديهم جميعا بأسمائهم الأولى ، ويقول إنه ما من قائد منهم إلا ويعتقد فى نفسه أنه أحق بالعرش منه! وفى منفاه بجزيرة «سانت هيلانة» أملى على ثلاثة من رفاقه مذكراته، فذهلوا للتفاصيل الدقيقة التى يتذكرها عن كل مراحل حياته ومعاركه والمؤامرات السياسية التى واجهها ، ومع ذلك فلقد كان ينسى أقرب تفاصيل حياته اليومية ، وقال أحد مرافقيه مداعبا إنه

كان يضع يده فى صديريته لكى « يجدها » حين يريدها خوفا من أن ينسى مكانها !

والعرب - كما تقول كتب التاريخ والأدب - كانت ذاكرتهم هى أقوى شيء فى روحهم ، إذ لم يكن لديهم شيء مدون ومحفوظ قبل الإسلام ، وكل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى - ما عدا المعلقات السبع - قد وصل إلينا عبر الذاكرة والرواة والحفاظ ، وفى هذا المجال تروى الأمثلة العجيبة على قوة حفظهم ، منها ما روته كتب الأدب من أنه كان للوزير الأديب « الصاحب بن عباد » مجلس للشعر لا يسمح بالانضمام إليه إلا لمن حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، ورغم هذا الشرط القاسى فلقد كان يجلس إلى مائدته فى الأعياد والمناسبات ألف رجل ينطبق عليهم هذا الشرط ، وإننى أصدق الآن أن كلا منهم كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر .. لكنى أجزم بأن أحدا منهم لم يكن يتذكر ماذا تناول من طعام فى غدائه قبل ذلك بثلاثة أيام !

إذن ، فما هى هذه الذاكرة التى تتسع لعمليات رياضية معقدة أو آلاف الأبيات من الشعر .. ثم تضيق فتعجز عن تذكر موعد مهم .. أو معلومة قرأناها منذ أيام ؟!

إن أبسط تعريف للذاكرة هو أنها جهاز فى المخ يسجل الصور والأفكار والمعلومات والأشياء المختلفة - كالرائحة والأصوات -

ويخزنها فيه إلى أن يتم استرجاعها منه عند الحاجة .. وأحيانا بلا إرادة من الإنسان . وعملية التسجيل تتم تلقائيا ، فتبدأ الذاكرة عملها الجاد فى حياة الإنسان من سن الثامنة وتستمر تتشكل وتنمو حتى سن البلوغ حين ينتظم عمل المخ .. ثم يظل حماس الذاكرة مطردا ومشتعلا حتى سن الثلاثين ، وبعدها تبدأ فى الانحلال تدريجيا .. وهو ما نسميه نحن بكثرة النسيان وسرعته ، لكن يعوض هذا النقص أن الإنسان يكون قد اكتسب فى هذه السن نضجا وخبرات قيمة فى التنظيم ووضوح الفكرة والقدرة على الترتيب ، مما يخفف عنه أثر تراجع ذاكرته وبداية انحلالها.

وبعض المتخصصين فى علم تنمية القدرات « يغيظوننا » بالقول إنه ليست هناك ذاكرة قوية وذاكرة ضعيفة ، وإنما هناك ذاكرة تم تدريبها على التذكر والحفظ والتسجيل ، وذاكرة أهمل صاحبها كسلا أو خمولا تدريبها فاستراح إلى إدمان النسيان ! وفى هذا القول شىء كثير من الحقيقة ، لأن الذاكرة كالعضلة من عضلات الإنسان ، إذا استخدمتها كثيرا نمت وقويت ، وإذا أهملتها ذوت وضعفت . وعملية تخزين وتسجيل المعلومات تتم فى المخ ، وعملية استرجاعها تتم عن طريقه أيضا ، لهذا فلابد - كما يقولون - من ممارسة أكبر قدر ممكن من التنظيم والانضباط على العقل لكيلا يسترخى ويدمن الكسل

والاسترخاء ، وأول ما ينصحوننا به لكي تكون لنا ذاكرة قوية هو أن « نقرر » أن نتذكر ، لأن إرادة التذكر هى أكبر العوامل المساعدة عليه . وأن يكون للمخ هدف لأن العقل الذى لا هدف له لا يمكن أن تكون له ذاكرة قوية.

وبقدر أهمية الهدف وكمية الجهد الذى نبذله للوصول إليه يكون نجاحنا فى التذكر .. فالطالب لا ينسى مثلا موعد الامتحان لأنه مهم وجوهرى فى حياته .. وقد ينسى موعدا مع صديق له لأنه ليس جوهريا ولا يؤثر على مجرى حياته ، وطالب الوظيفة لا ينسى أبدًا موعد الاختبار الذى سيتقدم إليه لأنه شديد الاهتمام به .. والمحب لا ينسى موعد خطيبته التى يحبها مهما كان ذهنه مشغولا بالشواغل لأنها شديدة الأهمية فى حياته، وكل إنسان يتذكر ما يريد أن يتذكره بقدر الحماس الذى يحمله للموضوع المطلوب عدم نسيانه .

والباب الملكى للذاكرة السليمة بعد أن تقرر أن تتذكر هو أن تفهم جيدا الشىء الذى سوف تتذكره ، إذ يندر أن ينسى الإنسان ما فهمه واستوعبه جيدًا، فى حين قد ينسى ماحفظه بلا فهم بعد فترة قصيرة من الزمن . ثم أن تستمر فى محاولاتك لإنعاش ذاكرتك وعدم تركها لنفسها لتشيخ وتهرم وتستنيم إلى الضعف والوهن ، والطريق لإنعاشها يبدأ بشحذ « انتباه » الشخص للأمر الذى يعنيه ، وحشد

أكبر قدر من التركيز الذهنى عليه . وهناك تدريبات عديدة يقدمها الخبراء لمن يريد أن يتعلم التركيز ، منها تدريب بسيط ، هو أن تغمض عينيك وترغم نفسك لمدة ٥ دقائق على التفكير بتركيز شديد فى موضوع معين وتطرد خلالها من ذهنك كل الأفكار البعيدة عنه ، ثم تكرر هذه العملية مرة كل عدة أيام لمدة ٣ شهور ، ترتفع بعدها درجة تركيزك كثيرا . ومنها أيضا تمرين فاترينة المحل التجارى ، وهو أن تنظر بتركيز إلى فاترينة أى محل لمدة ٥ دقائق، وحين تعود للبيت تدون فى ورقة ما تتذكره من محتوياتها ، ثم تقارن فى اليوم التالى بين ما رأيت وما تذكرت ، وتكرر هذه العملية عدة مرات لمدة شهور فتكتسب قدرات جديدة على الملاحظة والتركيز . وهذا التدريب بالذات تأخذ به معظم الأجهزة البوليسية وأجهزة المخابرات فى العالم فى تدريب عناصرها على دقة الملاحظة وحفظ الأشكال والوجوه ، ومنها أيضا تمرين العد التنازلى بالحساب العقلى بأن تبدأ بالعد فى أول يوم يوم تنازليا هكذا : ١٠٠ ، ٩٩، ٩٨ ، وفى اليوم التالى تقوم بالعد على الرقم الثانى هكذا : ١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٦ وفى اليوم التالى تقوم بالعد على الرقم الثالث : ١٠٠ ، ٩٧ ، ٩٤ ، ثم على الرقم الرابع والخامس والسادس إلخ .. فتنتعش ذاكرتك وتجدد شبابها وتنشط خلايا التفكير والتذكر فى عقلك .

ولأن الذاكرة تعتمد على المخ ، فإن المخ المجهد لا يكون فى أحسن الحالات المناسبة للاستيعاب أو للتذكر . ومن معوقات التذكر أيضا الانفعال والخوف والقلق والعصبية ، فالذاكرة نوع من التفكير ، ومن الأفضل أن نوفر لها الجو المناسب وأن نساعدها بعوامل مساعدة على أداء مهمتها ، كتكرار الشىء الذى لا نريد نسيانه بصوت مسموع أو صامت .. وبكتابته إلى جانب ترديده ، وبتنمية الاهتمام لدينا بما نفعل لكيلا ننساه ، وبربط الأشياء التى نريد تذكرها بعضها ببعض مما يسهل علينا استرجاعها حين نريد ذلك عن طريق تداعى المعانى ، عملا بقاعدة « الشىء بالشىء يذكر »، ولا بأس بعد ذلك من تغذية المخ بالأغذية التى ينصحنا بها الأطباء لتغذيته ، وهى الأطعمة التى تحتوى على الكالسيوم والفوسفور والمغنسيوم كاللبن والجبن والسمك والبيض - خاصة صفاره - وخبز الدقيق الأسمر والملح الخام والخضراوات والفواكه الطازجة و « جنين القمح » واللوز والجوز والبندق - لمن استطاع إليها سبيلا ! - إلى جانب فيتامين «د» الذى يصفه الطبيب لمن يحتاج إليه ، مع تجنب الأطعمة التى ترهق المخ ، كالإفراط فى الدهنيات والإفراط فى تناول السكر ، وتجنب المهدئات .. إلخ .

ولأنى أعانى من ذاكرتى منذ زمن طويل فلقد تعرفت على تدريبات

الذاكرة هذه منذ وقت مبكر ، وكانت بداية اهتمامى بها أنى قرأت عن أديبنا الكبير الأستاذ « نجيب محفوظ » أنه يبدأ يومه بحفظ وترديد بضعة أبيات من الشعر لكى ينشط بها ذاكرته ويدفع عنها « الوخم» ، فأصبحت منذ سنوات أرددو أحفظ من حين إلى آخر بضع آيات من الذكر الحكيم وبضعة أبيات من الشعر القديم وبضع مفردات جديدة من الإنجليزية والفرنسية ، وأمارس تدريبات الملاحظة التى أحبها لميل طبيعى فى تأمل الوجوه والأشياء . ولم أعرف أهميتها إلا حين قرأت عبارة الروائى الفرنسى « إميل زولا » ناصحا أصدقاءه الأدباء : علينا أن نصعد إلى نجوم السماء بسلم الملاحظة الدقيقة !

والحمد لله كثيرا على ما حققته معى تدريبات الذاكرة من نجاح باهر خفف عنى الكثير مما كنت أعانيه بسببها . صحيح أننى لم أحفظ ولن أحفظ أبدا – كما قيل عن الشاعر العباسى « أبى نواس » – «شعر ٦٠ امرأة ، فما بالك بأشعار الرجال » ! ولا حفظت – وهيهات أن أحفظ – « ألف ألف حديث شريف » كما قيل إن الإمام « أحمد بن حنبل » قد حفظها ثم « نَخَلها » أى فرزها واستصفى منها أكثر من ٤٠ ألف حديث ضمنها كتابه « المسند » ، لكنى على الناحية الأخرى لم أعد – والحمد لله – أزعج أسرتى بدق الجرس عليها فى الفجر لأنى قد نسيت مفاتيحى فى درج مكتبى بالأهرام سوى ثلاث أو أربع مرات على الأكثر فى السنة ، كما لم أعد أستيقظ سوى مرتين على الأكثر كل

سنة فى السادسة أو السابعة صباحا على صوت الجرس فى شقتى ، فأفتح الباب لأجد جارا فاضلا من جيرانى يشير لى مبتسما إلى مفاتيحى التى تركتها سهوا فى الباب من الخارج !

كما توقفت نهائيا – والشكر لله – عن اللجوء إلى المبيت مضطرا من حين لآخر فى فنادق وسط المدينة إلى أن أقوم بتغيير كالون باب الشقة وصنع مفاتيح جديدة لأنى نسيت مفاتيحى فى مكان ما لا أعرفه كما كنت أفعل كثيرا وأنا أعزب أعيش وحيدا فى مسكنى .. والفضل بعد الله فى هذا « النجاح الباهر » لتدريبات الذاكرة المفيدة .. ثم « للزواج » الذى شغل المسكن الخالى بمن أستطيع أن « أدق » عليه الباب حين أنسى مفاتيحى !

وهذا كله إنجاز عظيم أرجو ألا تنكره على ، خاصة إذا قارنتنى بصديقى الراحل المهندس « عبد الحميد » رحمة الله عليه ، وقد كان يسخر من تدريبات الذاكرة التى أحثه عليها ، ثم حدث أن عاد صديقنا المشترك الإذاعى القديم الأستاذ « يوسف الحطاب » من عمل بالخارج غاب فيه عامين والتقينا ودعانا لزيارته فى بيته بحلوان فى مساء اليوم التالى ، وفى اليوم المحدد اتصل بى صديقى عبد الحميد يسألنى عن برنامجى هذه الليلة ، فأجبته متعجبا : هل نسيت ؟ ألسنا على موعد لزيارة « يوسف » فى بيته كما اتفقنا أمس ؟ ! .. فاستدرك سريعا

وطلب مهلة للاتصال به أولا ، وعاد يتصل بى بعد قليل ليؤكد لى أن «يوسف» فى انتظارنا ، والتقينا فى وسط المدينة فوجدته يتجه إلى الدقى بدلا من حلوان ، وسألته : هل غير صديقنا مسكنه؟.. فأجابنى بالإيجاب ، ودخلنا إلى عمارة حديثة وصعدنا إلى الدور الرابع فيها ، ثم ضغط على جرس باب إحدى الشقق وانفتح الباب ، فإذا بى أجدنى أمام المرحوم «يوسف عوف » وليس يوسف الحطاب ! ولم أكن فى ذلك الوقت أعرف الكاتب الفنان يوسف عوف ولا يعرفنى إلا بالاسم ـ يرحمه الله.

# قطــار الجنــوب

وجدت نفسى فى القطار المتجه إلى الجنوب .. فمنذ كم من السنين لم أركب هذا القطار .. ولماذا ركبته ذلك اليوم ؟

لابد أنها عشرون عاما أو تزيد قليلا منذ كنت محررا شابا بقسم التحقيقات الصحفية ، أجوب مصر طولا عرضا ... وأتنقل فوق الخريطة من الشمال إلى الجنوب ، فلا أدع مدينة بغير أن أزورها .. وأبيت فى فنادق الأقاليم الصغيرة .. أو فى مراكز الشباب إذا عزّت الفنادق .. وأبيت مرة فى الصحراء الغربية .. ومرة فى قرى النوبة فى أعماق الجنوب .. ومرة فى قرى الصيادين على شاطىء البحر المتوسط .. ألتقى بنماذج مختلفة من البشر .. وأرى صورا حقيقية للحياة فى بلادى ، ثم أرجع إلى الأهرام فأكتب ما جمعت من مادة صحفية وأنشرها .

أصابنى تيبس المفاصل الصحفية منذ توليت بعض الأعمال الإشرافية وكففت عن الترحال والتجوال داخل مصر .. وأصبح السفر إلى مدينة أخرى غير القاهرة « مشروعا » أخطط له وأخلى له مكانا فى جدول ارتباطاتى قبلها بفترة مناسبة .

ركبت قطار الجنوب هذا ذات مرة فى الستينيات فى مهمة صحفية مازلت أذكرها حتى الآن .. فلقد حدث – وكنا فى الستينيات – أن كنت جالسا بقسم التحقيقات الصحفية فى الصباح أقرأ الصحف ، فوقع نظرى فجأة على إعلان صغير فى باب الاجتماعيات يشكر فيه صاحبه المسئولين فى وزارتىْ الداخلية والخارجية أن سمحوا لشقيقه بالعودة لمصر بعد ١٧ عاما احتجز خلالها فى أرض « العدو » .. وتحت الشكر اسم صاحبه واسم قريته النوبية فقط .. وأثار الإعلان حاستى الصحفية، وقدرت أنه لابد أن تكون وراءه قصة صحفية تستحق أن تُروَى . فلم يأت المساء حتى كنت راكبًا قطار الجنوب متجها إلى أسوان .. وأمضيت الليلة فى القطار حتى بلغت أسوان فى الظهيرة .. وركبت منها سيارة الأتوبيس إلى قرى النوبة الجديدة بمركز كوم امبو ... وليس فى جعبتى سوى اسم ناشر الإعلان واسم قريته ..

وبلغت القرية بعد بعض العناء .. ولم يكن صعبا أن أهتدى إلى الشخص الذى أبحث عنه، وأهل القرى الصغيرة يعرفون بعضهم

بعضا . وقرب الأصيل كنت أجلس إلى الرجل الذى نشر الإعلان وشقيقه العائد بعد غيبة طويلة .. فإذا بى أجدنى أمام قصة إنسانية وصحفية مثيرة .. فالرجل كان طاهيا لأحد الإنجليز المقيمين بمصر ... ورحل الرجل الإنجليزى عام ١٩٤٧ إلى فلسطين قبل الحرب مصطحبا معه طاهيه المفضل ، فلم يمض عام واحد حتى قامت حرب ١٩٤٨ وظهرت على الخريطة إسرائيل ، وتقطعت السبل بين الرجل وبين بلاده . ثم مات مخدومه الإنجليزى أو رجع إلى بلاده، فراح الطاهى النوبى يحاول العودة إلى مصر - بلا جدوى - سنوات ، إلى أن نجح فى النهاية فى السفر إلى قبرص وتوجه للسفارة المصرية هناك طالبا إعادته لمصر .. وأجرت الأجهزة المختصة تحرياتها فلم تجد ما يمنعها من السماح له بالعودة .

ورجع الرجل بعد ١٧ عاما من الغياب لم يحدث خلالها أى اتصال بينه وبين موطنه ، فوجد الأشقاء والأهل والأبناء ما زالوا يأملون فى عودته من المجهول الذى مضى إليه منذ زمن طويل ، أما زوجته فلقد صبرت على غيابه ١٥ عاما كاملة ثم استجابت أخيرا لضغط أشقائها عليها وأقامت دعوى طلاق أمام المحكمة بسبب غياب الزوج .. وحصلت على حكم الطلاق وتزوجت رجلا آخر قبل عودته لبلاده ببضعة شهور فقط . فإن كنت قد نسيت ما نسيت من ذكريات عملى

فى الصحافة خلال مرحلة الشباب، فإنى لم أنس بَعْدُ وجه هذا الرجل النوبى الطيب وهو يقول لى باعتزاز وثقة « مدافعا » عن زوجته السابقة: إنه يعلم جيدًا أنها لو تُركت لنفسها لما طلبت الطلاق منه أبداً مهما طال غيابه، لكنها لم تكن تستطيع أن تخالف إرادة إخوتها الرجال وهم المسئولون عنها فى غيبة الزوج !

فما أحلى الوفاء ولو طال المدى .. وما أغرب بعض مواقف الحياة ! أما الليلة فقد قضيتها فوق دكة خشبية بمركز الشباب بالقرية النوبية وشاركنى المبيت فيه - كرما وفضلا وإيناسا - بعض شباب القرية .. ورحنا نتسامر طول الليل حتى بدأ النوم يتسلل إلى عينى .. فإذا بأحدهم يقول لى عَرَضا : إن كل شىء جميل فى هذه القرية التى انتقلوا إليها حديثا بعد غرق قراهم القديمة تحت مياه بحيرة ناصر بسبب السد العالى ، إلا شيئا وحدا هو العقارب ، فلقد لسعت منذ أيام فلانا .. وفلانا .. وفلانا إلخ .. فعافاه الله حين قال ذلك إذ طار النوم على الفور من عينى .. وظللت متنبه الحواس أتأمل السماء الصافية ونجومها اللامعة .. حتى أشرقت الأرض بنور ربها وركبت قطار العودة للقاهرة.

أما رحلتى مع صديقى الأديب « أحمد بهجت » إلى محافظات الجنوب لتغطية الانتخابات العامة فى الستينيات فما زالت بعض

ذكرياتها الضاحكة تعاودنى حتى الآن .. ومازلت أذكر ذلك المرشح الذى انتظرناه فى بيته حتى رجع من جولة انتخابية له وقدم لنا الشاى ، وأشار بعصبية لمن يحمل الصينية أن يبتعد بها عنه لأنه لا يريد أن يرى شايا ولا قهوة بقية الليل ، ولم يكن ممكنا أن يفوتنا السؤال عن أسباب ذلك ، فإذا به يحكى لنا أنه زار بيوت بعض الناخبين .. وفى كل بيت منها كانوا يقدمون إليه الشاى أو القهوة تحية له .. ولابد له أن يشرب وإلا اعتبر اعتذاره إهانة لأصحاب البيت أو ترفعا منه عليهم ويفقد بالتالى تأييدهم ، فكانت النتيجة أن شرب خلال هذه الجولة ٢٨ كوبا صغيرا من الشاى و ١٢ فنجانا من القهوة!

كما مازلت أذكر أيضا ذلك المرشح الآخر الذى كان بادى الجهل وتلوح عليه « مخايل الغباء »، ويصطنع رغم ذلك هيئة الوقار والعلم ، فإذا بشيطان المعابثة والتعذيب المعنوى يركبنا فجأة ، فننهال عليه بأسئلة عويصة فى السياسة والاقتصاد والاشتراكية التى كانت صيحة العهد وقتها، فتكون إجابة المرشح الخطير على كل سؤال من أسئلتنا هى : اتساع شديد فى حدقتى العين ثم التلفت يمينا ويسارا فى حيرة لطلب النجدة من أحد المرافقين بلا جدوى .. ثم همهمة غير مفهومة بكلمات غير واضحة المعالم والحروف، والعرق يسيل على

جبهته ، فلا نرحمه رغم ذلك ، وإنما نوجه إليه سؤالا آخر بعد سؤال ونحن نتظاهر بتدوين إجاباته الخطيرة ..

ثم غادرنا بيت الرجل ونحن نتمايل من الضحك المكتوم ... ولولا الحياء من بعض ذويه الذين أصروا على توصيلنا إلى محطة القطار لانفجرنا فى ضحك مروع صاخب ، فلا غفر الله لنا اندفاع الشباب وحماقاته ... ولا سامحنا فى تعذيبنا السادى لهذا الرجل لأكثر من ساعتين .. ومن عجب أننى تتبعت نتائج الانتخابات فى هذه الدائرة بالذات ـ ربما بدافع الإحساس بالذنب تجاه الرجل ـ فإذا به من الناجحين !

أما قطار الجنوب الذى ركبته بعد كل هذه السنين فلقد ركبته تلبية لدعوة لم أستطع الاعتذار عنها من الدكتور « عبد الوهاب كحيل » رئيس قسم الصحافة بآداب المنيا ، للاشتراك فى مناقشة رسالة دكتوراه أشرف على إعدادها فى قسم الصحافة بآداب سوهاج قبل انتقاله للمنيا.

سألت نفسى مرارا بعد أن قبلت الدعوة : لماذا قبلتها مع ما تعنيه لى من أعباء إضافية وأنا المرهق بالعمل والارتباطات المختلفة ؟! فلم أجد جوابا مقنعا لهذا السؤال .

هل هو الحنين للعودة إلى أجواء الجامعة التى انقطعت عنها منذ

تخرجى فى قسم الصحافة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ؟.. أم هى الرغبة فى أداء مهمة علمية أكاديمية أمارسها لأول مرة .. وأستشعر فيها « بهجة » الممارسة الأولى لخبرة جديدة .. وهى « بهجة » لا تتوفر كثيرا الآن لمن خبر الأشياء وطال العهد به معها مثلى ؟!

لابد أنه هذا وذاك معا .. فلقد انقطعت منذ سنوات طويلة عن الحياة الجامعية ولم يعد يربطنى بها سوى ذكرياتها القديمة .. وسوى بعض زملاء الدفعة الذين ألتقى بهم على فترات متباعدة الآن فى المحافل والمناسبات العامة ، وقد أصبح معظمهم نجوما فى دنيا الصحافة والتليفزيون والإعلام .

ففى بداية تخرجنا كانت الصلة بيننا قوية .. وكنا نلتقى كثيرا فى نقابة الصحفيين وفى الحفلات العامة والمناسبات المختلفة فنتلهف على اللقاء .. ونتبادل الذكريات والسؤال عن الأحوال وزملاء الدفعة .

وكان الجميع يعتزون بانتمائهم جميعا إلى هذه الدفعة ، وينتهزون الفرص خلال الحفلات للإشارة إلى هذه الزمالة أمام شركاء الحياة .

ثم مضت السنوات فى طريقها المعهود ، فلاحظت أن « الزملاء » وحدهم هم الذين ما زالوا « يعتزون » بالحديث عن الانتماء لهذه الدفعة القديمة ، وأن الزميلات رغم حرارة اللقاء معنا قد بدأن يتجنبن الإشارة أمام أزواجهن إلى أننا أبناء دفعة واحدة !

وأوغل قطار العمر فى طريقه أكثر وأكثر ، فتسلل الشعر الأبيض إلى الرؤوس واختفى « الاعتزاز » نهائيا بالانتماء لنفس الدفعة من جانب الزميلات وحل محله « التكتم » ، فأذكر أننى قد التقيت منذ عامين بإحدى هؤلاء الزميلات العزيزات فى حفل بفندق سميراميس وجمعتنا مائدة واحدة مع زوجها وبعض الشخصيات الإعلامية المعروفة ، وأمسكت الزميلة اللامعة بزمام الحديث فتحدثت عن كل شىء بخفة ظلها ولباقتها المعهودة، إلا أننا من أبناء دفعة واحدة !! فأى « شيطان » أوحى لى بأن أشير فجأة إلى عام تخرجى فى الجامعة متعمدا عدم الإشارة إلى زمالتى لها فى نفس الدفعة وأنا أرمقها « فى تهديد » خفى ؟ وأى جرأة نفسية عجيبة أجابتنى بها زميلتى هذه وهى تقول لى بخبث أنثوى ظريف متظاهرة بالدهشة : هل أنت خريج قديم إلى هذا الحد ؟

وأى عجب بعد ذلك فى أن أواصل طوال السهرة « ابتزازها » بهذا السر المكتوم بلا حياء .. فأكلِّفها بتقريب هذا الطبق أو ذاك من أطباق الطعام .. أو بملء كوب من الماء من الزجاجة ، فتستجيب لما أطلبه فى حفاوة وهى تقول لى بصوت « تآمرى » خفيض : طلباتك أوامر !

جرى قطار العمر كما جرى ذلك القطار الذى ركبته منذ أيام مع الدكتور كحيل والدكتور « إبراهيم المسلمى » رئيس قسم الصحافة

بآداب الزقازيق فى طريقنا إلى سوهاج لمناقشة رسالة الدكتوراه المقدمة من الباحثة « رجاء نور » المدرس المساعد بقسم الصحافة بكلية الآداب هناك ، ووصلنا إلى سوهاج فى الحادية عشرة مساء بعد ٧ ساعات من السفر .. ووجدنا رئيس قسم الصحافة بآداب سوهاج الدكتور « فوزى عبد الغنى » وزملاءه من مدرسى القسم الشباب والباحثة فى انتظارنا.. وأمضيت الليلة مع عضوى لجنة المناقشة فى استراحة أساتذة الجامعة .. وفى الصباح توجهنا للقاء عميد الكلية الدكتور « أحمد الطوخى » الذى استقبلنا بحفاوة ، وقدم لنا القهوة التى كنت فى أشد الحاجة إليها ، ثم حانت اللحظة المنتظرة .. وانتقلنا إلى قاعة المناقشة.. وقدم لى الدكتور كحيل قبل أن أدخلها روبا جامعيا مهيبا لأرتديه عملاً بالتقاليد الجامعية العريقة .. ثم دخلنا القاعة وجلسنا إلى المنصة .. وافتتح الدكتور كحيل الجلسة بدعوة الباحثة إلى تقديم ملخص لرسالتها الجامعية .. ثم دعانى بعدها لمناقشتها، فناقشتها فيما عنَّ لى من ملاحظات على رسالتها .. ولم يغب عنى فى ذلك تقديرى لكفاحها لإعداد هذه الرسالة وهى الزوجة والأم لخمسة أطفال صغار ، وكانت مناقشتى لها هادئة ومتعاطفة ، وتركزت على مضمون الرسالة التى أعدتها عن تناول الصحافة لقضايا الشباب وبخاصة قضيتى البطالة والانحراف ، ثم جاء دور الدكتور إبراهيم

المسلمى فى المناقشة ، فكانت مناقشته لها - بوصفه أستاذا جامعيا - أكاديمية وأكثر تركيزا على أدوات البحث ، لكنها كانت أيضا منصفة وليست قاسية ، ولربما دفعنى إلى تجنب القسوة فى مناقشة الرسالة ما ترسخ فى ذاكرتى من ذكرى رسالة للماجستير فى الأدب حضرتها خلال دراستى الجامعية ، ورأيت فيها الباحث وهو يتصبب عرقا تحت وطأة مناقشة أحد أعضاء اللجنة له ، حتى أشفقت عليه على البعد ودعوت له بالنجاة من هذه المحنة . ولم يرطب قلقى عليه ولم أكن أعرفه شخصيا سوى كلمات المشرفة على رسالته ورئيس لجنة المناقشة الراحلة العظيمة الدكتورة «سهير القلماوى » التى شعرت بقسوة زميلها على الباحث ، فرفعت من معنوياته وأشادت بجهده فى إعداد الرسالة ، ولم أغادر القاعة يومها إلا بعد أن أصدرت اللجنة توصيتها بمنحه درجة الماجستير بدرجة الامتياز ، فاندفعت فى تصفيق حار كأن الباحث من أصدقائى أو أقاربى !

والحق أن التعاطف مع الباحثة كان ملحوظا بين كل أعضاء لجنة المناقشة . وحين اختلينا بأنفسنا لتقرير الدرجة التى توصى اللجنة بمنحها للباحثة لم تستغرق المناقشة دقائق أجمعنا خلالها على منحها مرتبة الشرف الأولى ، ورجعت اللجنة إلى القاعة لتعلن قرارها ، ولفت الدكتور كحيل نظرى إلى الوقوف أثناء قراءة القرار ، ووجدت

الحضور        جميعا واقفين ، أما الباحثة فقد وقفت محتبسة الأنفاس تنتظر قرار اللجنة الذى يتوقف عليه الكثير فى مسيرتها الجامعية .. وبدأ رئيس اللجنة قراءة تقريرها عن الرسالة .. ثم جاءت اللحظة الحاسمة فى حياة هذه الباحثة ورئيس اللجنة يقول : وتوصى اللجنة بمنحها درجة الدكتوراه. ثم توقف هنيهة استرقتُ النظر خلالها إلى وجه الباحثة ، فرأيتها شاحبة واجفة ، ثم واصل رئيس اللجنة حديثه: مع مرتبة الشرف الأولى ! فإذا بالباحثة تغمض عينيها فى تأثر شديد ، وانفجرت القاعة بالتصفيق والهتاف والزغاريد ، وتقدمت سيدة صعيدية عجوز من الباحثة فى انفعال شديد وهى تزغرد زغرودة كالولولة تثير الشجن وتحتضنها بعنف وهى تتمتم : بنتى .. بنتى ! ثم تواصل زغرودتها التى تحرك الشجون أكثر مما تثير الابتهاج ، وانهالت التهانى على الباحثة المجتهدة .. وصعدت إلينا لتشكر أعضاء اللجنة .. وغادرنا القاعة وسط جو مشحون بالانفعال والتأثر والابتهاج .

وكانت تجربة جديدة فى حياتى وحافلة بعطر الذكريات الجامعية ومشحونة بأريج الأجواء الجامعية التى باعدت بينى وبينها الحياة العمليه ، فإذا كنت قد اقتطعت من جدولى المزدحم يومين سافرت خلالهما إلى هذه المحافظة البعيدة لأؤدى واجبا أكاديميا دعانى إليه

زميلى القديم فى الصحافة العملية قبل أن يتخذ لنفسه الطريق الجامعى الدكتور كحيل ، وإذا كنت قد سهرت حتى الصباح بضعة ليال لأقرأ الرسالة وأكتب ملاحظاتى عليها على حساب عملى وواجباتى الصحفية ، فلقد عوضتنى لحظة إعلان القرار بانفعالاتها المشحونة .. وبمشهد الأم الصعيدية الطيبة وهى تحتضن ابنتها الباحثة فى تأثر وانفعال ، عن كل ما بذلت من جهد أو تحملت من عناء فى السفر وقلة النوم .

أما رحلة العودة التى استغرقت ثمانى ساعات فيكفينى من بهجتها أننى قد أمضيتها فى صحبة عدد من أساتذة الكلية والأدباء الظرفاء ..

فشكرا لرفاق الرحلة المتعبة الممتعة    وسُقيا لأيام الحياة الجامعية بذكرياتها القديمة ورموزها الجميلة .

# البحث عن سمكة

عندما اقترب شهر رمضان من نهايته ، بدأت كعادتى كل سنة أفكر فى المكان الذى سأقضى فيه إجازة عيد الفطر . لست من هواة الطعام بصفة عامة ، ومع ذلك فإن شهر رمضان يجهدنى كل سنة وأحتاج بعده إلى إجازة قصيرة .. لا يجهدنى الإمساك عن الطعام والشراب خلال ساعات الصوم ، وإنما ضيق الوقت المخصص للعمل فى رمضان ، وهو دائما يبدأ بعد الإفطار بساعتين وينتهى قبيل أذان الفجر ، ولابد من إنهاء كل واجبات العمل خلاله .. نهار رمضان لا يصلح عندى لأداء أى عمل جاد أو يتطلب تركيزا ذهنيا .. فحتى الصلاة قد يتشتت ذهنى خلالها رغما عنى ويشرد ، وقد أعيد بعض ركعاتها لشكى فى شرودى خلالها ، ناهيك عن شكى الدائم فى عدد ما صليت من ركعات وهل هنّ اثنتان أم ثلاث ؟!

ولأن الرأى الأفضل فى مثل هذه الحالة هو أن تفترض النقص وليس الزيادة ، فكثيرا ما أديت صلاة العصر بالذات من خمس أو ست أو سبع ركعات أحيانا تحريا لعدم النقصان !

وكثيرا أيضا ما حمدت الله لأنى أفعل ذلك بسبب شرود الذهن من تأثير نقص السكر والنيكوتين والكافيين فى الدم وليس لأسباب «درامية » أخرى !.. « فصديقى » المعذب « قيس بن الملوح » كان يواجه هذا الموقف كثيرا خلال صلاته ، وكثيرا ما أتذكره فى مثل هذه الحالة ، وأسترجع بيت الشعر الذى قاله معبرا عنها :

أصلـِّى فما أدرى إذا ذكرتُهـا  اثْنَتيْن صلَّيت الضحى أم ثمانيا !

وكثيرا أيضا ما أسترجع ما قاله أمير الشعراء «أحمد شوقى» على لسانه:

ولقـد أقـول لـمـن يبشرنـى  بالخُلد ما أنا داخل وحدى

لـو أن ليلى فى النعيم معـى  أو فى الجحيم تساويـا عندى

على أية حال فلقد انتهى شهر الصوم .. فلم أقل مع أمير الشعراء «رمضان ولّى هاتها يا ساقى » !.. وإنما رتبت لإجازة قصيرة خارج القاهرة بعيدا عن العمل !

واستجبت لنداء المغامرة وحب الاستكشاف فقررت أن أقضى إجازتى فى قرية سياحية جديدة قيل لى إنها تتميز بطابع مختلف ، فرحبت بالعودة إلى الطبيعة، وسعدت بفكرة الإقامة فى قرية مقامة فوق جزيرة فى النيل فى ريف المنوفية ، فأمضيت ليلة العيد فى إتمام استعدادات الرحلة وهى دائما البحث عن صنارة جديدة ومستلزماتها لمحاولة ممارسة هواية صيد السمك ، واختيار كتابين أو ثلاثة لقراءتها فى الإجازة ، وشراء فيلم للكاميرا واختيار وسيلة التسلية البريئة التى سنقطع بها الوقت خلالها كالطاولة أو الشطرنج.

ترقَّيتُ قليلاً فى هواية صيد السمك فاشتريت صنارة حديثة مما يستعمله الهواة المخضرمون ، وتذكرت وأنا مشغول مع ابنى فى إعدادها حيرة أديبنا الكبير الراحل «توفيق الحكيم » فى شيخوخته ولومه نفسه لأنه لم يتعلم أية لعبة من ألعاب التسلية ليروح بها عن نفسه ، وكيف وجد أن أنسب هواية لطبيعته هى صيد السمك لأنها لا تتطلب منه سوى أن يلقى الصنارة فى الماء ثم يستسلم لشرود ذهنه الدائم كيفما يشاء على عكس الهوايات الأخرى ، فحاول ممارستها، واكتشف بعد محاولات عديدة أنه لا يصلح لها أيضا لأنه يلقى الصنارة ثم يذهل عنها بالساعات، فإذا تذكرها وجذب الخيط وجد السمك قد التهم « الطُّعم » منذ وقت طويل وتجمع أمامه ينتظر المزيد من هذا الصياد الطيب الذى لا خطر منه !

تذكرت ذلك وابتسمت له .. كما تذكرت أيضا أننى لم أرجع بسمكة واحدة من رحلاتى خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، ليس لنقص المهارة - لا سمح الله - وإنما لسوء اختيار توقيت ممارسة الهواية ، فأنا أختار التوقيت حسب إجازتى من العمل وليس وفقا لأحوال السمك ومواسم الصيد ، وكثيرا ما أمضيت الساعات ممسكا بالصنارة بلا حراك على شاطىء بحيرة قارون بالفيوم ، أو بحيرة التمساح بالإسماعيلية ، حتى يشفق علىَّ أحد الهواة الخبراء ويسألنى مستنكرا : ماذا تفعل هنا فى عز الشمس والسمك صائم فى مثل هذا الوقت من السنة ولا يمكن صيده بالصنارة وإنما بشباك الصيد ؟!

فأفوز من الغنيمة بالإياب وببعض سمرة الشمس الملتهبه وهواء البحر المنعش !

وبهذا الدافع الاضطرارى توجهت مع أسرتى صباح أول أيام عيد الفطر إلى القرية السياحية الموعودة ممنيا نفسى بإجازة هادئة بين أحضان الطبيعة ، فما أن اقتربنا منها حتى خيِّل إلى أننى قد ضللت الطريق إليها، فما رأيته حين وصلت إليها ليس مدخل قرية سياحية ترقد فى هدوء فوق جزيرة فى قلب النيل ، وإنما مدخل مدينة ملاه أو مدخل «مولد» صاخب كمولد السيدة زينب ! .. مئات بل ألوف من الكبار والصغار يدخلون ويخرجون ، ومكبرات صوت تلعلع فى

أجواء المكان ، ومقاعد دوارة تدور بركابها فى الهواء فيصرخون ويهللون ، فتساءلت متشكيا : هل هذه هى « الطبيعة » التى أريد الرجوع إليها ؟!

حسمت الشك بسؤال موظف البوابة ، فإذا بها هى نفس القرية التى نصحنى بها صديق .. وإذا به يدعونى للدخول مع الأسرة ليقودنا إلى الشاليه المحجوز لنا ، فدخلنا مرتبكين ، وسرنا - وسط زحام صغار وكبار يرتدون ملابس العيد - إلى الشاليه المطل على النيل ، ثم استأذننا الموظف فى العودة لعمله ، فعقدت مجلسا للعائلة لتداول الأمر واتخاذ القرار ، هل نبقى وقد تبين لنا أن المكان يتوافر به كل شىء نحتاج إليه إلا الهدوء، أم نرجع من حيث أتينا ؟ واعتصمتُ كعادتى فى مثل هذه الظروف بمبادىء الديموقراطية التى قال عنها رئيس الوزراء البريطانى العتيد « ونستون تشرشل » إنها أضعف نظام « للحكم » ، ورغم ذلك فليس هناك نظام أفضل منه ! .. وتركت لأسرتى الاختيار فانقسمت الآراء بين مطالب بالبقاء واحتمال الضجيج، ومطالب بالرحيل فورا ، ومِلتُ برأيى إلى الجانب المطالب بالرحيل ، خاصة أن حقائبنا لاتزال بالسيارة ، فما أن هممنا بالتحرك لمغادرة الشاليه حتى جاءنا صاحب القرية السياحية مرحبا ومحتفيا .. ودعانى الرجل لمصاحبته فى جولة بمرافق القرية ، فخرجت معه

واستمعت له وهو يحكى لى بحماس عن فكرة إنشائها واختيار الطابع الريفى لها .. وأنا أفكر فى الحرج الذى سأواجهه حين أعلنه بانسحابنا منها بعد قليل . وواصل الرجل حديثه بحرارة ، فأيقنت فى داخلى بأننى لن أجرؤ على مصارحته بما كنا قد نويناه ، واستجبتُ لحماسه وهنأته على مشروعه المفيد ، وتمنيت له كل التوفيق فيه، وشكرت له مجاملاته الكريمة ، وافترقنا على موعد فى المساء ، فرجعت إلى أفراد أسرتى وبادرتهم بالتساؤل مستنكرا ماذا تنتظرون لإحضار الحقائب ؟.. فضحكوا وقد أيقنوا منذ جاءنا صاحب القرية مرحبا بأننى سأعدل عن قرار الرحيل مجاملة له .

وجاءت الحقائب وبدلنا ملابسنا ، وبدأت إجازتنا فى هذا المكان الصاخب ، وبدأ « جهادنا » أنا وابنى لمحاولة اقتناص سمكة واحدة ترفع من معنوياتنا لأن « التوقيت » مناسب هذه المرة .. لكن المكان هو الذى غير مناسب .. فضجيج الأغانى ومكبرات الصوت كفيل بإبعاد السمك عن مرمى الصنارة لعدة أميال !

وبعد ساعة لم تهتز خلالها « غمازة » الصنارة هزة واحدة ، رجعتُ إلى الشاليه وأخرجت مجموعة الكتب التى أحضرتها معى . كنت ليلة السفر قد مررت بمكتبة أحد الناشرين الذين أتعامل معهم لإحضار نسخ من كتبى الجديدة ، فرافقنى الرجل فى جولة بين أرجاء

مكتبته وأهدانى بعض كتبها ، وقبل أن أغادره مودعا مد لى يده بكتاب صغير قال لى عنه إنه كتاب جيد بالرغم من عنوانه ، وأن مؤلفه زميل شاب لى بالأهرام ، فأخذته وانصرفت ، وقرأت الاسم فلم أعرف صاحبه ، وقدّرت أنه لابد واحد من جيل الشباب الذى دخل الأهرام وإصداراته منذ وقت قريب .

وجدتُ هذا الكتاب بين يدى فبدأت قراءته متوجسا من عنوانه التجارى ، فإذا بى أنجذب بقوة لا إرادية للاستغراق فيه، وإذا بى أكتشف بين سطوره قلم كاتب جديد واعد له أسلوب وله عبارة وفكر أيضا !

يا إلهى ، من هذا الشاب ؟.. وما هذه الجرأة النفسية والفنية التى يكتب بها ؟. إنه يحكى فى كتابه عن بلدته فى أعماق محافظة سوهاج ، من خلال رحلة عاد فيها إليها من القاهرة الصاخبة ، ويقدم من خلال الرحلة عملا فنيا عجيبا يمزج بين السيرة الذاتية وبين عرض للحياة الحقيقية فى أعماق الصعيد وما يتحرك فوق أرضه من شخصيات ونماذج بشرية تدور فى أذهانها أفكار وأحلام وتطلعات تختلف كثيرا ـ للأسف ـ عما نتصور أننا نعرفه عن صعيد مصر .. فتوالت أمام مخيلتى وأنا أقرأ هذا الكتاب الصغير شخصيات ونماذج بشرية تستحق التأمل ذكرتنى بأجواء كتابات «يحيى حقى» عن الصعيد

فى « دماء وطين » و « صح النوم » و « البوسطجى» و « خليها على الله» .

وتوقفت عند شخصية الشيخ المتنور « عطية » إمام المسجد فى الستينيات الذى كان يحب «عبد الناصر» ويكره إسرائيل ويسمى كلبه الصغير « جونسون » ازدراءً لمواقف الرئيس الأمريكى الأسبق «ليندون جونسون» المنحازة لإسرائيل ، والذى كان يلتف حوله المؤلف وزملاؤه من طلبة المدرسة الثانوية بالمسجد فى درس العصر ، فإذا به يبدأه يوم الجمعة بأن يقرأ عليهم مقال «محمد حسنين هيكل» الأسبوعى فى الأهرام « بصراحة » ويناقشهم فيه « ويفتح عيوننا وآذاننا على آفاق أوسع بكثير من حدود الترعة والنخلة والجاموسة والفأس!».

ثم تتابعت الشخصيات العجيبة بعد ذلك أمامى من « عبد السلام» الطالب الفاشل الذى نشأ يتيما ولا يكف عن تذكير نفسه والآخرين بهذه الحقيقة ليبرر بها كل تصرفاته وفشله وضياعه «أصلكيتى يتيم» ، والذى لحق بالكاد مقعدا فى مدرسة الصنائع التى يرفع طلبتها كما يقول المؤلف شعار « رايح فين يا صايع .. رايح مدرسة الصنايع»!. ولا يحب العمل .. ويمشى كالزراف والمدية والمشط لا يفارقان جيبه ، ويأكل كثيرا ويحسد الممثلين على شهرتهم وثرائهم ،

ولا يخضع لأى فكرة سوى « فكرة ألا يخضع لأى فكرة » !

إلى الجَد « سالم » الذى ناهز التسعين وكان عينا من أعيان بلدة المؤلف وزير نساء قديما وروحا ساخرة لاذعة، فأوهنه المشيب وأضعف بصره حتى لا يكاد يعرف المؤلف حين يحييه وهو جالس على الدكة فى ساحة القرية يراهن حفيده على من يكون هداف الدورى هذا العام : «أحمد الكأس» أم «جمال عبد الحميد» !

إلى « القللينى » المزارع البخيل الذى ينبذه إخوته ويتآمرون عليه لحرمانه من نصيبه من محصول البلح ، والذى لا يرتدى جلبابا ولا يستحم ولا يأكل على طبلية ولا ينام على سرير، ويطرد زوجته «لإسرافها » ولا يكف عن شكوى إخوته إلى نقطة الشرطة حتى ليذهب فى إحدى جولات الصراع بينه وبينهم إلى ضابط النقطة ليروى له عن واقعة كان شاهد الإثبات الوحيد فيها هو جاموسته ، فيقول للضابط بتلقائية :

– أنا كنت واقف هنا يا بيه .. والجاموسة واقفة زى حضرتك !

إلى « توفيق » الذى يتلهف على إنجاب الولد ويهدد زوجته بالطلاق إذا هى أنجبت بنتا ، فيقع المحظور وتنجب بنتا بالفعل ولا تجرؤ على احتمال الطلاق ، فتلفها فى قطعة قماش وتسقطها من السور الذى يفصل البيت عن مياه الفيضان المحيطة به، فتطويها المياه وتحملها إلى قدرها المقدور ، ثم تحمل الزوجة مرة أخرى وتنجب ولدا هذه المرة

وينطلق الرصاص ابتهاجا وافتخارا، ويكبر الولد ويصبح فى الخامسة من عمره، ثم يفيض النيل ، وفى نفس الموعد ونفس المكان يميل الولد على السور الذى يفصل بين البيت ومياه الفيضان ومعه كوز ليملأه منها فيسقط فيها كأنما قد نادته جِنّية.. ويغرق حيث أُلقيت أخته من قبل حي ! .. فيذعن توفيق لمشيئة ربه فى النهاية وينجب بنتين لا يئدهما، وتموت زوجته فيتزوج أخرى فتنجب له ست بنات !

ويهون الأمر على نفسه قائلا : وماله؟.. ٨ بنات يعنى ٤ أولاد !

إلى « أبو غازى » ذلك الفحل الهائل الذى تزوج ثلاث مرات ، واختتم حياته بالزواج بـ « هنومة » الفتاة الصغيرة وهو فى الثمانين من عمره ، حيث سخر منه أحد أبنائه الكبار وغمزه بأنه لن يستطيع الصمود لشبابها وجمالها ، فإذا به يكذب ظنون ابنه وينجب منها «محمدا»، وينطلق الرصاص ابتهاجا بانتصار الشيخوخة على تحديات الشباب ، ثم يستسلم للشلل فى أواخر أيامه ويصبح مثل « مقطف جلّه تنقله هنومة من الشمس إلى الظل ومن الظل إلى الفراش وقلبها فضاء ممتد لا قمر فيه ولا نجوم » !

ناهيك عما تعكسه هذه النماذج من ملامح خافية على كثيرين منا للشخصية الصعيدية وأحلامها وأفكارها وهواجسها، ومنها هذه اللمحة التى يرسمها المؤلف :

« شىء ما يجعل الصعيدى طموحا إلى ما هو أكثر من القمح والقطن والثوم والفول والبصل والذرة ، شىء شبيه بالمَس يجعله فى انتظار معجزة تخرج من بطن الأرض فتغير حياته .. يبنى بيتا كسراى الباشا بدلا من الزريبة التى يسكن فيها مع الغنم والمعيز .. يلبس الحرير والعباءات ذات القفاطين المذهبة ، ويأكل الضانى والملطى - أى الديك الرومى - ويخلع المركوب ويلبس الأجلسيه .. إلخ » .

ويجد المؤلف تفسيرا لبعض سمات هذه الشخصية الصعيدية وبعض عاداتها المتأصلة كالثأر وحرمان الأنثى من ميراث أبيها ، والنفور من ذكر اسمها فى مجلس الرجال ، فى جذور تاريخية قديمة أفرد لها فصلا كاملا فى نهاية كتابه ، لكنه تفسير يحتمل الجدل والنقاش لجرأته الفكرية الملحوظة !

لقد « أنقذ » هذا الكتاب الصغير بعنوان « مرة واحد صعيدى » لمؤلفه الشاب الذى لا أعرفه « محمود الكردوسى » إجازتى من الفشل، وشغلنى عن ضجيج مكبرات الصوت بالقرية السياحية «الهادئة» ، كما عوضنى أيضا عن العودة الخائبة من شاطىء النهر بغير سمكة واحدة بسبب « الضجيج » هذه المرة - من فضلك - وليس بسبب نقص المهارة !

## كتب للمؤلف

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ١ ـ أصدقاء على الورق | قصص إنسانية | الطبعة | الأولى | ١٩٨٦ ( نفد ) |
| ٢ ـ يوميات طالب بعثة | أدب رحلات | الطبعة | الأولى | ١٩٨٧ ( نفد ) |
| ٣ ـ هتاف المعذبين | قصص إنسانية | الطبعة | الأولى | ١٩٩٨ ( نفد ) |
| ٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك | مقالات وصور أدبية | الطبعة | الرابعة | ١٩٩٦ ( نفد ) |
| ٥ ـ نهر الحياة | قصص إنسانية | الطبعة | الثالثة | ١٩٩٦ |
| ٦ ـ العصافير الخرساء | قصص إنسانية | الطبعة | الثالثة | ١٩٩٦ |
| ٧ ـ صديقى ما أعظمك | مقالات وصور أدبية | الطبعة | الثانية | ١٩٩٣ |
| ٨ ـ العيون الحمراء | قصص إنسانية | الطبعة | الخامسة | ١٩٩٨ |
| ٩ ـ افتح قلبك | مقالات وصور أدبية | الطبعة | الثانية | ١٩٩٦ |
| ١٠ ـ اندهش يا صديقى | مقالات وصور أدبية | الطبعة | الرابعة | ١٩٩٧ |
| ١١ ـ أزواج وزوجات | قصص إنسانية | الطبعة | الثالثة | ١٩٩٦ |
| ١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى | قصص إنسانية | الطبعة | الثانية | ١٩٩٦ |
| ١٣ ـ رسائل محترقة | قصص إنسانية | الطبعة | الثانية | ١١٩٦ |
| ١٤ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء | مقالات وصور أدبية | الطبعة | الثالثة | ١٩٩٦ |
| ١٥ ـ شركاء فى الحياة | قصص إنسانية | الطبعة | الثالثة | ١٩٩٦ |
| ١٦ ـ أماكن فى القلب | قصص إنسانية | الطبعة | الأولى | ١٩٩٤ |
| ١٧ ـ لا تنسنى | قصص رومانسية | الطبعة | الثانية | ١٩٩٦ |
| ١٨ ـ نهر الدموع | قصص رومانسية | الطبعة | الثانية | ١٩٩٦ |
| ١٩ ـ أقنعة الحب السبعة | قصص إنسانية | الطبعة | الأولى | ١٩٩٦ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٠ ـ خاتم فى أصبع القلب | صور أدبية | الطبعة الثانية | ١٩٩٦ |
| ٢١ ـ وحدى مع الآخرين | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثالثة | ١٩٩٩ |
| ٢٢ ـ سلامتك من الآه | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ١٩٩٨ |
| ٢٣ ـ هو وهى والآخرين | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٧ |
| ٢٤ ـ مكتوب على الجبين | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٧ |
| ٢٥ ـ أوراق الليل | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٧٧ |
| ٢٦ ـ طائر الأحزان | قصص إنسانية | الطبعة الثانية | ١٩٩٧ |
| ٢٧ ـ أعط الصباح فرصة | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى | ١٩٩٦ |
| ٢٨ ـ الحب فوق البلاط | قصص قصيرة | الطبعة الأولى | ١٩٩٧ |
| ٢٩ ـ سائح فى دنيا الله | أدب رحلات | الطبعة الثانية | ١٩٩٨ |
| ٣٠ ـ قالت الأيـام | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٧ |
| ٣١ ـ صور من حياتهم | قصص قصيرة | الطبعة الأولى | ١٩٩٨ |
| ٣٢ ـ ساعات من العمر | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى | ١٩٩٨ |
| ٣٣ ـ عاشوا فى خيالى | مقالات وصور أدبية | الطبعة الثانية | ١٩٩٩ |
| ٣٤ ـ قدمت اعذارى | خواطر وتأملات | الطبعة الأولى | ١٩٩٩ |
| ٣٥ ـ ترانين الحب والعذاب | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى | ١٩٩٩ |
| ٣٦ ـ الثمرة المره | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٩ |
| ٣٧ ـ دموع القلب | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٩ |
| ٣٨ ـ أيام السعادة والشقاء | قصص إنسانية | الطبعة الأولى | ١٩٩٩ |
| ٣٩ ـ أرجوك أعطنى عمرك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى | ٢٠٠٠ |
| ٤٠ ـ من المفكرة الزرقاء | صور ومقالات أدبية | الطبعة الأولى | ٢٠٠٠ |

# الفهـــرس





الموضوعات الخاصة بالمرأة والحب والزواج هى موضوعات اجتماعية وإنسانية بالدرجة الأولى، سواء أكانت هذه الموضوعات تتناول العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة داخل نطاق الأسرة أو خارج هذا النطاق.

ومن المعروف عن **الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع** أنه صاحب أسلوب أدبى إنسانى رفيع المستوى، يتمثل فى عشرات الكتب التى أصدرها والتى وجدت قبولاً عظيمًا من جانب القراء فى مصر وفى كافة أنحاء الوطن العربى بكل دوله وشعوبه.

وتحت عنوان «**من المفكرة الزرقاء**» كتب الأستاذ المؤلف مئات من المقالات الأسبوعية التى نشرتها تباعًا مجلة «**زهرة الخليج**» التى تصدر فى أبى ظبى على مدى أكثر من عشر سنوات متتالية.. وقد تناولت هذه المقالات مجموعة كبيرة من القصص والصور الأدبية التى تدور حول محور رئيسى هو: **المرأة.. والحب.. والزواج.**

«**الناشر**»

- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
- يكتب باب «بريد الجمعة» الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
- صدر له ٤٠ كتابًا، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
- له ثلاث مجموعات قصصية هى: «أماكن فى القلب» و «لا تنسنى»، و«الحب فوق البلاط».

GREAT IS OUR GOD

# حصريات مجلة الابتسامة

WWW.IBTESAMA.COM